أَنْــسَنَةُ الــوَحْيِ
(دِرَاْسَةٌ نَقْدِيَّةٌ)

الدكتور حسان القاري
قسم العقائد والأديان
كلية الشريعة
جامعة دمشق

الملخص

تروج في الوقت الراهن وخاصة في الأوساط الفلسفية والشرعية المتعصرنة بعض الدعاوى التي تزعم أن الوحي الإلهي إنما هو نصوص بشرية أو نصوص مطلقة عن المعاني، ولذلك فإن بإمكان أي شخص أن يفهمها أو يفسرها على النحو الذي يراه منسجما مع ظروفه وآرائه؛ وتستخدم لتدعيم مثل هذه الدعاوى بعض المقولات الشرعية المتصلة بعلوم القرآن أو أصول الفقه، كالنسخ وأسباب النزول، وتبدل الأحكام بتبدل الأحوال.

وتحمل هذه الدعاوى تأثراً واضحاً ببعض الدعوات الفلسفية الغربية الحديثة التي تتبنى قواعد الهرمونوطيقا التي تسعى إلى تحويل الثيولوجي إلى أنتروبولوجي. وهي بالنهاية تمهد إلى نبذ الوحي والتخلي عنه.

وللتحقيق في صحة مثل هذه الدعاوى من بطلانها لا بد من دراسة ظاهرة الوحي على أساس المنهج العلمي السليم، مع تركيز العناية بكل جانب ذي صلة بالموضوع المطروح. للتأكيد أن هذا الوحي إلهي المصدر لا بشري.

وفي سياق ذلك لا بد من دراسة مقارنة لمواقف الفلاسفة الأقدمين، والفلاسفة الإسلاميين، وأحبار النصارى، والمستشرقين، والعلمانيين العرب وصولاً إلى مناقشة تلك المقولات الأنسنية، بالاعتماد على مراجعة الأساس المعرفي الأبستمولوجي لها، وتوضيح صلتها ببعض المفاهيم الفلسفية القديمة وبالسفسطة واللاأدرية. ودراسة مدى صحة اعتمادها المزعوم على الأسس الشرعية السالفة الذكر.

ولا بد أيضاً من مناقشة الاتجاه الهرمينوطيقي مقارناً بالقواعد الأصولية لفهم النصوص، ليتم بيان حقيقة العلاقة بين الوحي ومن أوحاه، وأن فهم النص هو في الحقيقة محاولة فهم مراد الله فيما أوحاه، مما يعني أن محاولة فهم النص على أنه وحدة منقطعة عن مصدره هي محاولة باطلة؛ وأن القانون السليم لفهم النص عامة والموحى به خاصة ما هو في الحقيقة إلا القواعد الأصولية المقررة لدى الفقهاء المسلمين.

وبذلك كله تكون الأمور قد اتضحت وضوحاً يساعد على كشف الدوافع الحقيقية لإنشاء وإشاعة هذه الدعوات الفلسفية المعاصرة في المجتمع العربي والإسلامي وخطرها على مشروع النهوض بالحضارة الإسلامية.

أولاً: الإشكالية التي يعالجها البحث:

الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد المصطفى أحمد المجتبى، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه واقتدى بسنته إلى يوم الدين.. أما بعد...

تروج في الوقت الراهن وخاصة في الأوساط الفلسفية والشرعية المتعصرنة، بعض الدعاوى التي تزعم: أن الوحي الإلهي إنما هو نصوص بشرية، أو بغض النظر عن مصدرها هي نصوص مطلقة عن المعاني، ولذلك فإن بإمكان أي شخص أن يفهمها أو يفسرها على النحو الذي يراه منسجماً مع ظروفه وآرائه ورؤاه الشخصية.

وتحمل هذه الدعاوى تأثراً واضحاً ببعض الدعوات الفلسفية الغربية الحديثة التي تتبنى قواعد الفينومنولوجيا[1] والهرمينوطيقا[2] والتي تسعى إلى تحويل الثيولوجي إلى أنتروبولوجي. ويشاع - على الرغم مما في هذه الدعاوى من خلل علمي ومنهجي واضح – الزعم بضرورة الاعتماد عليها من أجل فهم النص الديني وتحديد مدلولات القرآن والسنة على الخصوص. إن محور القضية يتحول هنا من الخطاب الديني إلى النص الديني، والمقصود هنا خاصة هو القرآن والسنة. وهي في النهاية تمهد إلى نبذ الوحي والتخلي عنه.

ولتدعيم هذه الدعاوى تُستَخْدَمُ بعض المقولات الشرعية المتصلة بعلوم القرآن أو أصول الفقه، كالنسخ وأسباب النزول، وتبدل الأحكام بتبدل الأحوال والأزمان.

وبالجملة فهذه قضية يحتاج أبناء الأمة اليوم إلى معرفة حقيقتها، إذ هي تمثل الجذر الأساسي للحوار المعاصر بين الدين والفلسفة في شأن معالجة الواقع، وتتحدد بناء عليها الكيفية التي ينبغي التعامل بها مع النصوص الشرعية بهدف النهوض بالواقع العربي والإسلامي نحو التقدم والتطور بما يخدم مصالح الأمة فرداً ومجموعاً.

وقد كانت مقولات الفلسفة التفكيكية الأساس المعرفي الإبستمولوجي (Epistemology) الرئيس الذي

---

1) فينومينولوجيا Phenomenology: (الظاهريات) فلسفة تبحث عن إظهار المعنى الخفي بحروف منطوقة.

2) الهرمينوطيقا Hermeneutique: أسلوب الفهم والتأويل. مع التركيز على علاقة المفسر بالنص.

اعتمده دعاة الأنسنة أكثر الأحيان في محاولتهم الالتفاف على كون الوحي إلهيا، وهي الفلسفة التـي يعدُّ جاك دريدا الفيلسوف اليهودي الفرنسي المعاصر هو المؤسس لها. وكان أولا يـسميها فلـسفة (الهدم) ثم صار يلطف اللفظ إلى (التفكيك) محاولاً ستر فجاجة مقولته وسماجتها. ولكن البحث يشير إلى أن استعمال أدواتٍ مناظرةٍ للأدوات التي اعتمدها أصحاب هذا الاتجاه، مثل: (النقض أي: الهـدم، والنقد والتفكيك) تؤدي في النهاية إلى إبطال مقولات أصحاب هذا الاتجاه الهرمينوطيقي وتفكيكها، بل ومقولات المنهج التفكيكي نفسه.

ثانياً: هدف هذا البحث:

يسعى هذا البحث إلى التحقيق في صحة هذه الدعاوى من بطلانها، ولا بد لذلك من دراسـة ظـاهرة الوحي على أساس المنهج العلمي السليم دراسة مقارنة بالمواقف الفلسفية والدينية قديماً وحديثاً بما يشمل مواقف الفلاسفة الأقدمين، والفلاسفة الإسلاميين، وأحبار اليهود والنصارى، والمستـشرقين، والعلمانيين العرب وصولاً إلى مناقشة تلك المقولات الأنسنية، وتوضيح صـلتها بـبعض المفـاهيم الفلسفية القديمة وبالسفسطة واللاأدرية. ومدى صحة اعتمادها المزعوم علـى الأسـس الـشرعية السالفة الذكر. ومناقشة الاتجاه الهرمينوطيقي مقارناً بالقواعد الأصولية لفهم النصوص، للتأكيـد أن هذا الوحي إلهي المصدر لا بشري، وليتم بيان حقيقة العلاقة بين الوحي ومن أوحاه، وأن فهم النص إنما هو في الحقيقة محاولة فهم مراد الله فيما أوحاه، مما يعني أن محاولة فهم النص على أنه وحدة منقطعة عن مصدره هي محاولة باطلة. ولكي يتضح في النهاية أن القانون السليم لفهم النص عامة والموحى به خاصة ما هو في الحقيقة إلا القواعد الأصولية المقررة لدى الفقهاء المسلمين.

وبذلك كله تكون الأمور قد اتضحت وضوحاً يساعد على كشف الدوافع الحقيقية لإنشاء هذه الدعوات الفلسفية المعاصرة وإشاعتها في المجتمع العربي والإسلامي، وخطرها علـى مـشروع النهـوض بالحضارة الإسلامية.

ومن المؤكد أن تمحيص جميع الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع أمر لا يمكن بحال من الأحوال إنجازه في مثل هذا البحث، ولكن المقصود تحقيقه - بتوفيق الله - هو بعض المسائل الجوهرية فقط. وبإذن الله نبدأ.

ثالثاً: معنى أنسنة الوحي:

الأنسنة لغة: لفظ مولد في العصر الحديث، وهو مشتق من: (الإنسان) بمعنى جعل الشيء منتـسباً إلى الإنسان، أو منسجماً مع طبيعة الإنسان وصفاته.

وأمَّا اصطلاحاً: فالنزعة الإنسانية هي مذهب فلسفي أدبي مادي لا ديني، يؤكد فردية الإنسان ضد الدين، ويغلب وجهة النظر المادية الدنيوية، وهو من أسس فلسفة كونت الوضعية، وفلسفة بنتام النفعية، وكتابات برتراند راسل الإلحادية. [1]. ويمكن عَدُّها وجهاً للعلمانية الشاملة يحل (الإنسية) مقام (الدينية)[2].

وأمَّا تركيباً[3]: فهي تعني ضمن تعبير: (أنسنة الوحي) – فضلاً عمَّا سبق في بيان إشكالية البحث - محاولة تحويل الوحي من اصطباغه بأنه إلهي أو ثيولوجي إلى بشري إنتروبولوجي، مما يؤدي إلى إزالة القدسية عن النص وتقديس الموقف الشخصي. وبطريقة أخرى: إزالة القدسية عن الله وإلباس القدسية للإنسان، وآرائه وظروفه وتوجهاته.

ويمكن القول: إنها تلك الدعوة - التي ينادي بها أصحاب التيار العلماني الغربي والعربي- إلى النظر إلى النصوص الدينية على أنها صيغ خاصة بتاريخ مضى وبظروف أحاطت بذلك التاريخ، ومن ثَمَّ فإن على الناس في هذا العصر أن يفسروها أو يؤولوها بالطريقة التي تجعلها تنسجم مع مبادئهم وأفكارهم، وتحاكي ما تبنته الفلسفات المعاصرة. والسبيل إلى ذلك هو الأخذ بالمنهج التفكيكي في التعامل مع تلك النصوص، الذي استحدثته بعض مدارس الأدب والألسنيات في العالم الغربي في العصر الحديث؛ وهذا المنهج يرتكز على بتر العلاقة بين النص وقائله، والسعي قدر الوسع في استخراج التناقضات بين أجزاء تلك النصوص - على حد ما يُزعَم -، ثم ترك المجال متاحاً على مصراعيه أمام القارئ، ليقرأه ويفهمه في كل عصر وظرف بالطريقة التي تنسجم مع أفكاره ومفاهيمه الخاصة به، والتي هي ثمرة ظروفه في عصره الذي يعيش فيه. وذلك بعيداً عن أية ضوابط لأسلوب الفهم تقيد القارئ بمقصود صاحب النص نفسه.

---

1) الموسوعة الميسرة ص837

2) العلمانية تحت المجهر: د.المسيري ص71-72.

3) أما تعريف الوحي والحديث عنه تأصيلا وتفصيلا فهو موضوع المطلب الآتي.

المبحث الأول: مفهوم الوحي في الفكر الإسلامي

المطلب الأول: الوحي عند علماء الإسلام:

الوَحْيُ لغةً(1): هو مصدر: وَحَيَ إليه، يَحِي، من باب (وعد). وجمعه: (وُحِيٌّ) وقيل: أُوحِيٌّ. ومعناه: إعلامٌ في خفاء، أو الإشارة السريعة والكلام الخفي، ويطلق على الرسالة والإشارة والإلهام والكتابة، والكِتاب، واسْتَوْحَيْتُه: اسْتَفْهَمْتُه. كما يطلق على الموحى به وهو: المَكْتُوبُ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه كيفما كان. و(الوَحَا): السُّرعة يمد ويُقصر. و(الوَحِيُّ): السريع. و(الوَحَى): النـارُ، ويطلق هذا أيضاً على المَلِكِ والسِّيِد من الرجال.

والوَحْيُ شرعاً(2): هو إعلام الله تعالى نبيه بحكم شرعي ونحوه، بواسطة أو بغير واسطة. سمي وَحْياً لأَنَّ الملَك أَسَرَّه على الخلق وخَصَّ به النبيَّ المبعوثَ إليه. ولا يجوز أن تطلق الصفة بالوحي إلا لنبي. وهو أيضا بمعنى الموحى به(3) أي: الكلام أو النص الذي يُعلمُه الله تعالى نبيَّه بواسطة أو بغير واسطة، سواء كان لفظا ومعنىً، أو معنىً فقط. كما في قوله تعالى: [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ] [الأنعام: 5]، وقوله: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[النجم: 3-4].

وإذا استثنينا ما يكون من إيحاء الله تعالى إلى شيء من مخلوقاته جريا على المدلول اللغوي، على معنى الإلهام أو التسخير ؛ ومثال الأول قوله: [وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى] [القصص: 7](4). ومنه (وَإِذْ

1) القاموس المحيط، ولسان العرب، والمصباح المنير، والمغرب في ترتيب المعرب، ومفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني، ومختار الصحاح، مادة: (وحي).

2) التعاريف 721/1-722 ؛ الملل والنحل 37/2-38 ؛ والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ص1169-1171. وتفسير القرطبي عند قوله: [ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك] [آل عمران: 44]. نظرية المعرفة للكردي ص 701 وما بعدها، مصادر المعرفة للزنيدي ص 100 وما بعدها.

3) وهذا هو الغالب على الاستعمال في هذه الدراسة.

4) وقيل: بل كان ذلك لها بسماعها للملَك، حتى قال ابن حزم بنبوتها [انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل 105/4]، وقصر القرطبي نبوة النساء على مريم عليها السلام، لأن وحيها تضمن الأمر بأحكام، وذهب الجمهور إلى أن هذا المقدار من الوحي قد حصل لها، ولكنه غير كاف لتسلك في سلك النبوة لأن الله تعالى حين امتدحها قال: [وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ..][المائدة:75] ولو كانت نبية لكان ذكر وصف النبوة لها أولى في سياق المدح. ولقوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ][النحل:43] [تفسير القرطبي 11 / 90]. وكذلك قيل: في قوله تعالى: [وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بي وبرسُولي][المائدة:111]؛ أَلْهَمْتُهم. ولكن قيل أيضاً معناه أَمرتهم، ومثله: وحَى لها القَرارَ فاستَقَرَّتِ، أَي: أَمرها؛ وقال بعضهم معناه: أَتَيْتُهم في الوَحْي إليك بالبَراهِين والآيات التي استدلوا بها على الإِيمان فآمنوا بي وبك. وعلى هذين الرأيين الأخيرين تكون الآية المتعلقة بالحواريين خارجة عن معنى الإلقاء في النفس. وعلى الأول يكون إلهاماً من نوع إلهام أم موسى في الرأي الأول.

أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ)[المائدة: 111] وقيل: معنى (أوحيت إلى الحواريين) أمرتهم. ويمكن أن يلحق به الإلقاء بالمنام كما يشير إليه حديث: (انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن)(1). ومثال الثاني قوله: [بِأَنَّ ربك أَوْحى لها] [الزلزلة: 5] أي بسبب أنه أمر الأرض بأن تشهد على كل عبد بكل ما عمل على ظهرها. والإلهام الغريزي المشار إليه في قوله: [وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ] [النحل: 68] أي أمَرَها بطريق التسخير الغريزي. - إذا استثنينا ذلك - فإن الوحي وفق الاصطلاح الشرعي أشكال وأنواع عديدة. أما أشكاله فدل عليها جملة قوله تعالى: [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ][الشورى: 51]. فهي:

1. إما برسول مشاهد تُرى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل في صورة معينة، سواء كان في صورة بشرية أو في صورته الحقيقية -وهو أشد أنواع الوحي-.
2. وإما بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى كلامه تعالى، أو كما حدث للنبي r، في ليلة الإسراء والمعراج – على وفق من يرى أن محمداً r لم ير ربه في تلك الليلة، وأما من قال بعكسه فيكون ما حدث له تلك الليلة نوعاً آخر فيه رؤية الله مع سماع كلامه-.
3. وإما بلا سماع كلام ولا مشاهدة ملك. وذلك:

§ بسماع صوت كصلصلة الجرس كما بينه النبي r في حديثٍ له(2).

§ أو بإلقاء في الروع، لحديث: (إن روح القدس نفث في روعي)(3).

§ أو بالرؤيا المنامية التي يراها النبي ويوقن أنها وحي من الله تعالى، كما في حال إبراهيم حين ابتلاه الله بذبح ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

1) أخرجه: البخاري 2564/6 [6589].

2) هو ما روته عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام t سأل رسول الله r فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله r : (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس –وهو أشده علي – فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا، فيكلمني فأعي ما يقول). قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. أخرجه: البخاري باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله r ، رقم [3043] ، ومسلم في الفضائل، باب: طيب عرق النبي r في البرد وحين يأتيه الوحي، رقم:[2333].

3) أخرجه: الحاكم في المستدرك من حديث عن ابن مسعود وأبي حميد وجابر 4/2،5(2136) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ وابن حبان برقم:(3228)؛ وابن أبي شيبة:79/7(34332)؛ والبغوي في شرح السنة: 4112؛ ومسند الشهاب:185/2(1151)؛ والطبراني في الكبير:166/8(7694)؛ وغيرهم.

§ وهناك من يرى أن الوحي يكون بنوع من الكشف. كما يشير إليه قـول الغزالـي: بـأن معرفـة النبي r لأمور الآخرة ولأمور الدنيا ليست تقليداً لجبريل، بل قد انكشفت له الأشياء وشاهدها بنور البصيرة كما شاهد المحسوسات بالعين الظاهرة[1].

وهذا الذي ذكره الغزالي ينقلنا إلى بيان أنواع الوحي المحمدي من حيث المتن والسند، وهما نوعان:

1. ما أوحي لفظاً ومعنى، وهو القرآن، وفيما يتعلق بنقله فثابت تاريخياً أنه قد دون فور نزولـه على الرسول r، وأنه منقول بالتواتر حتى جَمْعِه الذي اتفقت عليه الأمة، ثـم اسـتمر مـدونا متواتراً بعد ذلك، مما ينفي أي شبهة في حصول تغيير فيه. فحفظ ونقل إلينا كما أنزل دون أي تحريف أو تبديل.
2. ما أوحي معنىً، وأما لفظه فمن النبي r وهو السنة[2]. وهذا القـسم قـد يقـع فيـه التبـديل والتحريف المتعمد بالكذب والوضع أو غير المتعمد بسبب الخطأ والنسيان أو نحو ذلـك. وقـد قامت في القرن الأول وما تلاه حركة الجمع والتمحيص التي اعتمدت على منهج علمي دقيـق لتمييز الحديث الصحيح من غيره، فقام علماء الحديث بوضع الضوابط والقواعـد والمـوازين التي يمكن بواسطتها تنقيح السنة [قدر المستطاع] لتُكشف أقرب ما تكون إلى الوجه الذي صدر عن النبي r، حتى أصبح كل حديث منسوب للرسول r واضح المنزلة والقيمة[3]. فما كان منها مقبولاً يتفاوت في درجات قوة الثبوت بين قطعي وظني، ورجحان الظني كذلك متفاوت النسب، وكل ذلك تكفل ببيانه وتنقيحه علم الحديث بكل فروعه من مصطلح ورجال وجـرح وتعـديل. ويراعى خلاله جانبا الرواية والدراية في آن واحد؛ فهو ليس علماً جامداً مع قواعـد الروايـة فحسب، بل لجانب الدراية فيه أيضاً النصيب الوافي. ومن الملاحظ أن هذا العلـم فيـه أيـضاً المرونة، بحيث يقبل الاجتهاد في تنقيح وتحقيق مناط قواعده؛ وهو أمر يعطي لتعدديـة الآراء نصيبها، ضمن حدود تضمن غالباً تمييز مراتب الصحيح والسقيم من الأخبار.

وهذا الذي ذكرته بوجه إجمالي من معنى الوحي وأشكاله وأنواعه يعدُّ محل اتفاق لدى جميع علمـاء الإسلام، من أصوليين وفقهاء ومفسرين ومحدثين ومتكلمين[4]. مع شيء من تفاوت آراء في بعض

1) انظر: الغزالي بين الفلسفة والدين لعارف تامر ص 76.

2) الملل والنحل 38/2

3) انظر: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي للزنيدي ص 587-588.

4) كتاب المواقف لعضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الإيجي الإيجي بشرح الجرجـاني ج 3 / ص 203 ومـا بعـدها. نظريـة المعرفة للكردي ص701 وما بعدها، مصادر المعرفة للزنيدي ص 100 وما بعدها.

التفصيلات الدقيقة، كما سبقت الإشارة إليه في مواضعه.

ومن أبرز خصائصه التي ينتفي عنه بها موقف أو فهم خاطئ:

أ- أنه يتم بالاصطفاء المحض من قبل الله للنبي وليس بالكسب.

ب- أنه يتنزل حسب مشيئة منزله وحسب، وليس للجهد البشري عمل في توارده على الذهن، أو هبوطه على القلب.

ج- اليقينية المطلقة لكل ما قدم من علم.

د- تنزهه عن التأثر بالزمان النازل فيهما.

هـ- انتفاء الحلول في حالة تلقيه.

و- أنه قائم على علم الله مباشرة[1].

ولم يزل الوحي ينزل على الأنبياء الذين يختارهم الله تعالى منذ آدم u حتى محمد r خاتم النبيين، وقد قص الله في القرآن قصص عدد منهم، وبين مواقف أقوامهم منهم وما كان من عاقبة أمرهم. وذكر من أسباب رفض بعضهم لدعوات الأنبياء أنهم كانوا يرونهم بشراً مثلهم، قال تعالى: [قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ] [يس: 15]، وحكى عنهم قولهم: [مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ] [المؤمنون: 24] وكذلك في قوله: [مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ] [هود: 27]. ومن نماذج ذلك موقف اليهود من رسالة عيسى u ومن دعوته وأتباعه من الإيذاء وإغراء حكام الرومان بهم، زمن وجود عيسى بينهم وحتى بعد ما رفعه الله إليه[2].

وعلى نقيض الموقف الفلسفي - الذي سيأتي بيانه- ظن بعض الحرفيين من أهل الملة الإسلامية كالظاهرية والخوارج أن الوحي يلغي دور العقل تماماً[3]. ولكن النظرة الشرعية الصحيحة التي عليها جميع المجتهدين وعامة أهل العلم في الإسلام كأصحاب المذاهب الأربعة والغزالي وابن تيمية، هي أن

1) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي للزنيدي ص 586.

2) مواقف من تاريخ الكنيسة لرولاند بينتون ص3، 17 ؛ ومحاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة ص28، 34.

3) انظر: آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.أبو يعرب المرزوقي ص84.

الوحي يخاطب العقل ويحثه على النظر في العلوم المنزلة ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله تعالى، فإذا صحت النسبة إليه تعالى فعليه أن يستوعبها ويفهمها ويتدبرها ويستنبط منها، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

فإذا حجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله وحده في التبصر بكل ما فيه مصلحته في الدارين، بل تغيب عنه أشياء كثيرة ويعجز عنها، كما يغفل أكثر الخلق عن إدراك الحق في معظم تلك الأمور أصلاً، بسبب انشغالهم غالباً بشأن تدبير أمورهم الحاضرة، دون أن يقدروا على التبصر فيما يسعدهم ويشقيهم في عواقب تصرفاتهم في الدنيا ناهيك عن الآخرة. فالوحي كضوء الشمس مع العين، فلا ينتفع الإنسان بعينيه إذا عاش في الظلمة. فالأنبياء يرشدون بالوحي العقل، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده على وجه يطمئن العقل إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة. يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم، ويعودون بالناس إلى الألفة ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة[1].

المطلب الثاني: الوحي عند الفلاسفة الإسلاميين:

تعكس آراء الفلاسفة الإسلاميين على الإجمال محاولة للجمع بين ما جاءت به الشرائع وما قال به فلاسفة اليونان، مع ترجيح المقولات الفلسفية الجامدة بوقوفها الغالب عند مشكلة الوجود على نصوص الوحي المتحركة بانطلاقها عموماً مع مشكلة العمل؛ فكانوا يسعون إلى تحقيق نتائج مسبقة من خلال النصوص هي ما قرره فلاسفة اليونان. حتى حاول أمثال ابن سينا والفارابي والطوسي إدراج ما جاءت به الشرائع من أوصاف الوحي والنبوة تحت التصور العام للميتافيزيقيات عند الفلاسفة الأقدمين. فعللوا النبوة بشيء من الصفات والخواص المميزة لشخصيات الأنبياء تمييزاً جبلياً، زعموا أنهم بها وصلوا إلى هذه العلوم الغيبية، وذلك بغلبة أرواحهم السامية على كثافة أجسادهم المادية، حتى استطاعوا أن يطلعوا على تلك الماورائيات التي أخبروا عنها، وربما سمى المتفلسفة مصدر التلقي بالعقل الفعال، جرياً على طريقة اليونانيين في المقولات الميتافيزيقية. فيقولون: «إن الوحي والكلام الذي جاءت به الرسل إنما هو فيض من هذا العقل الفعال على قلوب الأنبياء»[2]. ويصفون كلام الرب بأنه : «فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة

1) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص 62-63، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ص1170-1171

2) الجواب الصحيح ج: 5 ص: 27

فتكلمت به» وهذا كما يقوله ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو[1]. ولكن ابن رشد[2] نفى صحة هذه النسبة[3].

وربما وجد من تأثر بشيء من تلك المقولات بنسبة دون ذلك، كعالم اللغة الأندلسي أبي محمد عبدالله بن محمد بن السِّيْد البطليوسي إذ يبين أن من خواص النفس النبوية الشريفة تَلَقي الوحي والإلهام والاتصال بالعقل الفعال، وتقويم سائر النفوس المنحرفة عن الحق وإكمال الفطرة الناقصة بوضع السنن والوعظ والتذكير والترغيب والترهيب والإخبار بالأشياء التي ليست في قوة النفس الفلسفية أن تعلمها، فإذا اتفق للإنسان في أصل مولده أن يعطى فطرة كاملة استغنى عن المقاييس ووجد الأمور العقلية كأنها مصورة في نفسه. ويرى البطليوسي أيضاً أن النبوة تكون في هذه النفس إلهاماً من الله لا اكتساباً من قبل النبي باتخاذ شيء من الأسباب[4].

وللشيخ محمد عبده أيضاً في كتاب التوحيد كلام يشبه أن يكون قد اتبع فيه البطليوسي، فهو يشرح النبوة بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصي الدليل والبرهان. ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم[5].

ويبدو أن هذين وابنَ رشد لا يقولون بمثل ما يفهم من كلام ابن سينا ومن تبعه، من ادعاء أن النبي r هو مصدر صياغة تلك النصوص. فهما - وأمثالهما ممن أصابهم نسبة من التأثر بالمقولات الفلسفية- لا يخالفون ما عليه سائر المسلمين من أن الوحي منه ما يوحى لفظاً ومعنى وهو القرآن، ومنه ما يوحى معنى فقط ولفظه من النبي وهو السنة؛ كما سبق بيانه. وبالخلاصة ألفت إلى أنه كثيراً ما أدت ردود الأفعال إلى المواقف المتطرفة من علاقة الوحي بالفلسفة في إطار محاولات التوظيف القطبي المفرِط والمفرِّط إلى تناسي أن الربط بين الكتاب والحكم، والدعوة والحكمة، والعقل

1) معارج القبول ج: 1 ص: 380

2) كما سيأتي خلال عرض موقف الفلاسفة الأقدمين.

3) منهاج السنة النبوية 348/1

4) الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة: أبو محمد عبدالله بن محمد السيد البطليوسي الأندلسي ص 54-56.

5) رسالة التوحيد لمحمد عبده ص 59-60 وما بعدها

الصريح والنقل الصحيح من الأسس التي لا تغيب في القرآن الكريم[1].

المبحث الثاني: الوحي في الفكر الغربي التراثي

المطلب الأول: الوحي في اليهودية:

تقر اليهودية بالوحي من قبل الله تعالى إلى أنبيائه، ولكن الصورة التي يكون بها في أكثر الأحيان بحسب ما هو وارد في العهد القديم هي أن الموحى إليه يرى ذات الرب حين الوحي في صورة شخص[2]، وفيه أيضاً صور أخرى، منها أن يُسمع الوحي من خلال نار أو نور يظهر في السماء، أو من خلال أمور وأصوات مزعجة كشدة ريح وزلزلة وعواصف وزوابع، إرادية أو غير إرادية. وتارة يكون الوحي بأن ينادى عليه أكثر من مرة ولا يعرف مصدر النداء سواء كان من الله أم من الملك. إذا فالوحي من الله عن طريق رؤيته مباشرة في صورة شخص أو شيء أو سماع صوت[3]. وقد عرَّف ابن ميمون اليهودي النبوة بأنها ظاهرة تكاد تكون طبيعية يستطيع المرء أن يصل إليها من خلال المران اللازم حتى يرتفع إلى الكمال الخلقي والعقلي، ولكن مع هذا ليس بإمكان النبي أن يصبح نبياً إلا بإرادة الخالق. على أن آراء ابن ميمون حالة يجب التنبه إلى خصوصيتها في الفكر اليهودي وسيأتي الحديث عنها فيما بعد.

ومن الملاحظ أنه لم يزل تأثير القصة التاريخية لنصوص أسفار العهد القديم على الحضارة الغربية يزداد ويستمر. خاصة والاعتقاد السائد لدى المراجع الدينية الرسمية اليهودية أو المسيحية أن الكاتبين لهذه الأسفار بما تحويه من وحي مقدس وتاريخ مفصل هم أنبياء وحكماء وكهنة بني إسرائيل أنفسهم الذين أوحى الله بها إليهم مباشرة، وأن موسى u قام بكتابة الأسفار الخمسة بنفسه. وأما أسفار يشوع والقضاة وصموئيل فعدت سجلات مقدسة احتفظ بها النبي صموئيل في شيلوه، وسفرا الملوك دونا بقلم إرميا. وأن داود u هو مدون سفر المزامير، وأن سليمان u هو مدون سفر الأمثال وسفر نشيد سليمان.

غير أن حقيقة الحال ليست كذلك، والدليل على هذا القول أمران:

---

1) آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.أبو يعرب المرزوقي ص 87.

2) العهد القديم: سفر التثنية 33-101.

3) الموسوعة الميسرة ص1170

الأمر الأول: (من حيث الصياغة): وهو أن الدراسات الحديثة منذ القرن السابع عشر شككت في الثقة التاريخية للكتاب المقدس العبري، بل حكمت بأنه تجميع وترقيع لمصادر مختلفة. فالسفر الأخير من أسفار التوراة الخمسة يصف بالتفصيل الدقيق ظروف ووقت موت موسى بالضبط. ويحتوي النص التوراتي على كثير من التعليقات الجانبية الأدبية كالأسماء القديمة لبعض الأماكن. مما أعطى اقتناعاً بأن هذه الأسفار على الأقل كتبت ثم وسعت وسبكت لاحقاً من قبل محررين ومراجعين مجهولين على مدى عدة قرون.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وبدرجة أكبر في القرن التاسع عشر، بدأ الرأي يتجه إلى نفي أن يكون لموسى أي يد في كتابة أسفار التوراة. فلاحظ الباحثون ما يبدو أنه نسخ مختلفة للقصص نفسها ضمن الأسفار الخمسة للتوراة، فاقترحوا أن النص التوراتي كان نتاجاً لعدة أيدٍ يسهل التمييز بينها. ولوحظ أن لكل مجموعة من هذه الروايات خصائص تميزها بسهولة بواسطة الاصطلاحات والتركيز الجغرافي المستعملين فيها، فضلاً عن التمايز الواضح من خلال اختلاف الاسمين المستخدمين لإله إسرائيل، فروايات تسميه يهوه Yahweh وهذه تبدو مهتمة بقبيلة يهوذا ودولتها الجنوبية، وروايات تسميه إيلوهيم Elohim أو إيل، وتبدو مهتمة بالقبائل والأراضي التي تقع في شمال البلاد. فأُعطيَ الاسم [J] للمصدر اليهوي Yahwist الذي قدر أنه كتب في أورشليم (القدس) مباشرة بعد عهد سليمان (970-930 ق.م). والاسم [E] للمصدر الإيلوهي Elohist الذي خمن أنه كتب في الشمال ومثل وجهة نظر مملكة إسرائيل ربما في أثناء الحياة المستقلة لتلك المملكة (930-720 ق.م). هذا في حين بدا سفر التثنية في أسلوبه الخاص وثيقة مستقلة سميت [D] دي. وعُدت الأقسام التي تهتم بأمور الطهارة والعبادات والطقوس وأحكام تقديم القرابين مقتبسة من مصدر الكهنوتي Priestly دعي [P] بي[1].

الأمر الثاني: (من حيث الموضوع): ففي حين تؤمن التعاليم الإسلامية بعصمة الأنبياء والرسل، وتذهب إلى اعتبارهم صفوة البشر، وأنهم هم الذين يجب أن يتخذ الناس من سلوكهم قدوة يقتدون بها. نرى التوراة تلصق بالأنبياء أعمالاً قبيحة تتنافى ومكانتهم الدينية والاجتماعية، فقد نسبت إلى داود u أنه زنا واغتصب زوجة أحد قواده (صم2، إصحاح 11، فقرة 2-26)، كما نسبت

1) موسوعة المستشرقين لعبدالرحمن بدوي ص 408. التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها The Bible Unearthed: أ. د إسرائيل فنكلشتاين، نيل أشر سيلبرمان ص 35-38.

إلى سليمان u أنه أحب الكثير من النساء الأجنبيات، وعبد آلهتهن (ملوك، إصحاح 11، فقـرة 1-9)، وإلى لوط إثماً مع ابنتيه (تكوين، إصحاح 19، فقرة 30-37)، وإلى أمنون بـن داود اغتـصاب أخته ثامار (صم2، إصحاح 13، فقرة 1-29) إلى غير ذلك من الافتراءات على أنبياء الله.

ومن أعجب ذلك ما ابتدعوه عن كليم الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام أنهمـا خانـا الـرب فعاقبهما بالموت. فقد كلم الرب موسى قائلاً: (مت في الجبل، كما مات أخوك في جبل هـود. لأنكمـا خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء قادش في برية صين، لم تقدساني في وسط بني إسـرائيل. فإنك تنظر الأرض من قبالتها، ولكنك لا تدخل إلى هناك، إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسـرائيل) (سفر التثنية، الإصحاح 32، الفقرات 50-53). ثم تتابع التوراة قولها: (يوشع بن نون هـو يـدخل هناك) (سفر التثنية، الإصحاح الأول، فقرة 38) وكذلك قولها: (لا تعبر هذا الأردن، وأما يوشع هـو يعبر) (تثنية، إصحاح 3، فقرة28).

وبناءً عليه استخلص الباحث الألماني سيللين من بعض الفقرات من سفر يوشع أن هناك دلائل على أن موسى u مات شهيداً، اغتاله الكهنة الذين قادوه، فهدموا كل ما نادى به من تعاليم دينية تقريباً. وهناك من يرى أن يوشع بن نون هو الذي اغتال موسى u ؛ حيث استصحبه إلى أعلى الجبل، ثـم عاد من دونه ليعلن أن الأمر بموت موسى قد تم تنفيذه وفقاً لأمر الرب. وإذا كان موسى u في نظر التوراة التي بين أيدينا خائناً، فكيف تنسب هذه التوراة إليه، وتسبغ عليها صفة القدسية؟![1].

وأمَّا حد ما يتدخل به الوحي من أمور الإنسان في اليهودية فإن فرقاً على اختلافها تكاد تكون متفقـة على أنه منحصر في تحديد الممارسة والشعائر والسلوك، وأما ما سوى ذلك فإن المجال فيه متـروك للبشر يجتهدون فيه بحسب ما تراه عقولهم، ومن جملته معرفة العقيدة!! التي لا تتفق آراء الفـرق حول شيء منها إلا في الإيمان بإله واحد. وفيما لو اختلف العقل والنقل في أمر فإنـا نجـد لـديهم اختلافاً في ترجيح أي من الطرفين على الآخر، لكن التحديد السابق لميدان الاختصاص جعـل للعقـل على وجه الإجمال سلطاناً واسعاً مقارنة بسلطان الوحي، حتى ولو افترضنا تقديم الوحي ضمن ما هو من اختصاصه. فكيف فيما لو كان الأمر على خلاف ذلك؟!.

فيرى الربوبيون أن العقل حينما يصفو يقترب من الوحي الأمر الذي يفترض وحدة العقل والوحي.

1) سفر التاريخ اليهودي رجا عرابي ص178-179و 265، 332، 338، 486 وهو يحيل في الاستفهام الأخيـر إلـى الكاتبـة الأديبة (أبكار السقاف).

ويشكل موسى بن ميمون نموذجاً متميزاً في الفكر اليهودي عمومــاً. لأنــه تــأثر بالبيئــة الفكريــة الإسلامية التي عاش حياته فيها، والتي تذهب عموماً إلى أن العقل والنقل لا يختلفان في أحكامهمــا. فقد حاول أن يخرج نتيجة لذلك بطريقة للتوفيق بين ما يقوله العقل وما يقوله النص الديني اليهودي، إذ يرى أنه لا يمكن التناقض بين الدين والعقل لكن لا يمكن الوصــول إلــى الحقيقــة دون وحــي. وكنموذج لهذا الموقف نرى أنه تأثر بعقيدة الإسلام في التنزيه فقال بتأويل كل ما يشير إلى شيء من التجسيم في حق الله تعالى من نصوص. كما وصف النبوة بأنها ظاهرة يستطيع المرء أن يصل إليها من خلال المران اللازم للكمال الخلقي والعقــلي، ولكن مع هــذا ليس بإمكانــه أن يــصبح نبيــاً إلا بإرادة الخالق. وكل الأنبياء يأتيهم الوحي محدداً، أمَّا موسى u فقد أتى بشريعة مستمرة هي من أهم المعجزات في التاريخ، ولكن مع هذا كان لابد لها من أن تتنازل لمستوى العقل الجماهيري، ومن هنا تأتي بعض الشعائر مثل تقديم الضحايا والقرّابين التي تُعَدُّ تنازلاً لهذا العقل الذي ينجذب دائمــاً نحــو الوثنية فلذا لا يمكنه تخيُّل عبادة دون تضحية[1].

وأمَّا في العصر الحديث فكان من الشخصيات ذات الأثر موسى مندلسون ذو الاتجاه العقلي الحديث أو التنويري، فيميز بين الحقائق العقلية والحقائق التاريخية أو الدنيوية. ولــذلك يعــدُّ صــاحب حركــة إصلاحية يسمى أتباعها باليهود المُصلِحة، وهي تدعو إلى اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها على حساب بعض التخفيف من بعض التعاليم التي تتعارض مع تحقيق هذا التعــايش[2]، وذلــك بناء على أن العقل والوحي مختلفان وأن الأول يسبق الثاني، وأن العقل يمثــل المــضمون إذ يقــرر العقائد وهي أمور جوهرية عامة ومجردة فلا تتطلب سوى عملية عقلية لإثباتها وتقبُّلهــا، والــوحي يمثل الشكل ويقرر الشعائر الفردية والجماعية فتتطلب قرائن حسية لإثباتها لأنهــا محــددة بالزمــان والمكان. فإن كلام الرب لموسى ونصوص العهد القديم وحتى الوصايا العشر كل ذلك لا يتحدث عــن الإيمان ولا يذكر أية عقائد، وإنما تتحدث كلها عن طريقة للسلوك يطبقها اليهود في حياتهم. وبــذلك يرفض مندلسون مسألة الطريق والمصدر المزدوج لمعرفة الحقيقة ذاتها على النحو الذي يتبناه ابــن ميمون، فالوحي لا يمكنه أن يقنع أي إنسان بحقيقة شيء لم يدركه عقله، فكأن العقل هــو النقطــة المرجعية النهائية والمطلقة في كل الحقائق الأساسية. ومع هذا فإن الوحي له دوره وهــو مــصدر الشعائر الخاصة بكل دين. وبناء عليه فإن لكل دين استقلاليته وخصوصيته ومحاولة مزج كل الأديان

1) موسوعة اليهود للمسيري 279/3

2) تاريخ الأديان للدكتور محمد الزحيلي والدكتور يوسف العش ص120.

في دين واحد مسألة غير ممكنة[1].

وبالنتيجة: نصل إلى أنه ومن جميع الوجوه السابقة يثبت تدخل اليد البشرية والعقل البشري في صياغة وتحديد مدلولات النص الديني اليهودي، ومن ثمَّ فإن تطبيق المنطق الهيرمينوطيقي عليها لا يؤثر بأي جديد فيها[2].

المطلب الثاني: الوحي عند الفلاسفة الأقدمين:

كانت اليونان في نحو القرن السادس ق.م تعج بديانات وثنية، ولا يلاحظ للوهلة الأولى أثر واضح للوحي في تصورهم عن الدين، ولكن بعضاً منهم مثل جلبرت موراي يرى أن أصل المعتقدات الدينية التي كانت عند اليونانيين هو رسالة سماوية مرت عليها أزمان ومراحل من التبديل، حتى غدت بتلك الصورة التي انتهت إليها، أو بدأت أسطورية ثم خالطت شيئا من العقائد السماوية كاليهودية أولاً، والمسيحية فيما بعد.

وعلى كل فإنهم إذ لم يعرفوا معرفة جلية وحياً منزلاً من عند الله لم يبحثوا فيه قبولاً ورداً، ومجالات وقيماً؛ ولذلك فإن السابقين على سقراط حاولوا أن يفسروا الوجود تفسيرات فلسفية خاصة بهم. وفلسفاتهم وإن كانت تحمل أحياناً شيئاً من أثر العقائد الوثنية السائدة، لكن سعيهم وراء إجابات أفضل لمسألة الوجود، وسخريتهم من تلك العقائد الدينية أو تعديلهم لبعضها أحياناً، دون البحث عن مصدرها يدل على اعتبارهم إياها إنتاجا بشرياً، بل هو ما اتخذه بعضهم موقفاً صريحاً إذ عدَّ الدين في حقيقته مجموعة أساطير ابتدعه خيال الإنسان الخصب، فينبغي أن يُستَبْدَل به أفكار من نبع العقل في تفسير الكون[3]، وسعياً وراء هذه الأفكار العقلية البديلة رأى طالس (624-546 ق.م) أن المبدأ الأول للأشياء هو الماء. فيما يرى انكسيمنس أن المبدأ الأول هو الهواء. أما انكسمندر (545 ق.م) فرأى أن أصل الكائنات مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود. وكأنهم كانوا يبحثون عن الإله الذي ليس كمثله شيء من حيث لا يشعرون. ثم فيثاغورس (507 ق.م) الذي حاول أن يجد أصلاً ذا صفة تشمل كل شيء في العالم مادياً أو معنوياً فاختار العدد، ولما كانت الأعداد عبارة عن تكرار الواحد، فالواحد إذا هو أصل الكون وعلته.

---

1) موسوعة اليهود للمسيري 56/3-57.

2) وهذا ما لا يمكن فعله في خصوص الإسلام كما سيأتي.

3) الفلسفة اليونانية لكريم متى ص76.

ونبذ اكزنوفنس أساطير اليونان المجسدة للإله وسخر من آلهتهم التي تأكل وتشرب وتلتذ وتموت، فقال: (إن الناس هم الذين اخترعوا الآلهة وتصوروها بمثل هيئاتهم، ولو كانت الثيران أو الأسود أو الجياد تعرف التصوير لرسمت لنا الإله على أشكالها، كلا ثم كلا، إنه لا يوجد غير إله واحد، هو أرفع الموجودات، ليس مركباً على هيئتنا، ولا يفكر مثل تفكيرنا، بل كله بصر وكله سمع وكله فكر). وأما إدراك كنهه فهو عنده أمر مستحيل على العقول.

ثم أتى بارمنيدس الذي رأى أن الأصل هو الوجود، وهو وجود كامل أزلي لا يتغير ولا يفنى لا يمر عليه زمان لا يتحرك ولا يتجزأ وليس وراءه وجود آخر. وتبعه تلميذه مليسوس فزاد أن هذا الوجود غير متناهٍ وله حياة عاقلة.

وجاء هيرقليطس (475 ق.م) فذهب إلى الجمع بين القول بـ (الصيرورة) بناء على ملاحظة التغير - الذي فسره بالاتحاد الآني بين وصفين متناقضين هما الوجود واللاوجود-، والقول بـ (النار) كأصل إذ رأى حياة الحيوان ترافقها الحرارة فزعم أن الروح نفسها عبارة عن نار.

ثم تبعه امبدوقلس فزعم أن الوجود مكون من ذرات لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير، وأمَّا الصيرورة والتغير فيكون في الأجسام المتركبة من تلك الذرات، ووضع نظرية العناصر الأربعة التي تتكون منها جميع الأشياء، وما اختلافها إلا لاختلاف نسبة هذه العناصر في كل واحد منها. وأما حركة مادة الكون فهي في رأيه منبعثة من قوة خارجة عنها، فزعم أنها عبارة عن قوتي الحب والنفور [أو التجاذب والتنابذ] وهما سبب اختلاف التوزيع المتفاوت لنسب العناصر، والآلهة والنفوس، أيضاً تتكون من هذه العناصر ولكن يغلب فيها عنصر الهواء والنار!!.

ثم خلف من بعده ديموقريطس الذي فصل المذهب الذري فنسب إليه بسبب ذلك. حيث انتهى إلى القول: إن في الكون حقائق أولية ثلاثا وهي الذرات والفراغ والحركة. وهذه الحركة هي نتيجة ضرورة عمياء [1]، وعن ذلك ينتج الكون بما فيه حتى الآلهة والأرواح.

حتى إذا جاء اناكساغورس رد على ديموقريطس قوله بالضرورة العمياء. فقال: (من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال وهذا النظام اللذان يتجليان في العالم، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد بصير حكيم). ولذلك عد أول من فتح باب الفلسفة

1) تشبه الفوضى الخلاقة التي عدها جورج بوش سبيلا إلى إعادة ترتيب منطقة الشرق الأوسط كما يسمونه.

الروحية وحام حول الحق. مما جعل أرسطو يقول عنه: (إنه الوحيد الذي احتفظ برشده أمام هـذيان أسلافه).

ثم نبأت السوفسطائية على اختلاف أصنافها، - وأصحابها هم أسلاف دعاة الأنسنة الحديثة خاصـة والفلسفة الغربية المعاصرة عامة-، فزعموا أنَّ ليس هناك حقيقة مطلقة، وإن وجـدت فـلا يمكـن الوصول إليها، لأن مصادر المعرفة هي الحس والعقل وهما نسبيان، ومن ثم ينبغي أن تكف الفلسفة عن البحث في الحقيقة المطلقة، وأن تبحث في الإنسان وقدراته وإنتاجه. وكان ظهورهم في ظروف اجتماعية طغت فيها على البلاد موجة من الشك والكفر بآلهة الأساطير، وموجة مـن الديمقراطيـة فتحت للناس أبواب المناصب عن طريق التلاعب بالجماهير، فمهروا في تعليم الناس فنـون البيـان والخطابة والجدل وتزويق الكلام. وكانوا يفخرون بأنهم يستطيعون أن يؤيدوا الرأي ونقيضه، وتمادوا في غوايتهم حتى كادت طريقتهم تؤدي إلى هدم أسس العقل والمعرفة وتمزيق الأخلاق. وأشـهرهم بروتاغوراس، ويمكن أن نعده أبا الأنسنة لأنه أول من صاغها فكرة صـريحة، وهـو القائـل: (إن الإنسان مقياس كل شيء)، وأنكر العقل كأداة للمعرفة، فصار ما يدركه كل شخص صحيحاً بالنـسبة إليه، ولا يوجد شيء يمكن أن يسمى خطأ، وسمى العربُ هذا المبدأ (العندية) لأنه يؤدي إلى اعتقـاد كل فرد بما عنده. وانحدر غورجياس بالسفسطة إلى نهايتها في السخافة حين أنكر وجود الأشـياء بالمرة وحكم باستحالة المعرفة أصلا[1].

إلى أن جاء العقليون وعلى رأسهم سقراط (399 ق.م) الذي بنى فلسفة المعرفة ببيان قيمة العقل في الوصول إلى الإدراكات الكلية المجردة عن طريق النظر في المحسوسات، وبهذه الإدراكـات العقليـة الكلية نستطيع أن نضع مقاييس صحيحة ثابتة للحقائق، وأن نعرف ما هي الفضيلة. فأكد بذلك قيمـة العقل في المعرفة، وأنه يدرك الحقائق المطلقة. ثم وصم الدين بأنه في حقيقتـه مجموعـة أسـاطير ابتدعه خيال الإنسان الخصب، فينبغي أن يُستَبْدَلَ به أفكار من نبع العقل في تفسير الكون[2]، ولا شك في أنه يقصد الديانة اليونانية الوثنية التي كانت سائدة في بيئته، وهو الموقـف الـذي أعـدم مـن أجله[3].

ووقع أن اجتمع سقراط مع بعض أتباع فيثاغورس للبحث في مصير النفس البشرية بعـد المـوت،

1) قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص 28-37.

2) الفلسفة اليونانية لكريم متى ص76.

3) فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط لأحمد فؤاد الأهواني ص20.

فتطارحوا التناسخ ولما لم يقم لديهم وجه صحيح بحثوا في خلودها مستمرة على حالة واحدة ولما أعياهم الدليل سكتوا إلى أن تكلم سيمياس بأن الأمر عسير وأنه لابد من الدأب في طلب معرفة ذلك إلى أن يصلوا بالعقل إلى يقين في الأمر، وإن أعجزهم فليس لهم إلا القبول بما يغلب على الظن. مادام ليس لهم سبيل إلى ما هو أقوى من ذلك وهو الوحي الإلهي. مما يعني أنهم لم يكونوا يعرفون معرفة صريحة وحياً منزلاً ثابتاً قطعاً، ولذلك لم يحسموا أمرهم بقبوله والاستفادة منه.

ثم أقبل أفلاطون (347 ق.م) على فلسفة المعرفة التي وضعها سقراط فأضاف إليها أن الإدراكات العقلية الكلية تستند في أحكامها إلى نماذج مسبقة لها وجود حقيقي خارج عقولنا، وذلك هو عالم المثل، ثم قسم الدين إلى أسطوري وسياسي وفلسفي، وهذا الأخير هو الذي يصور الحقيقة كما يقررها العقل[1]. الذي من أوجب أعماله معرفة الله وأنه خير محض، فيعرف به نفسَه ويعرف الحقَّ حتى يكون مقياساً أو مثالاً للأشياء جميعاً[2]. فإن العالم آية في الجمال والنظام ولا يمكن أبداً أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقية، بل هو صنع عاقل، كامل، توخى الخير، ورتب كل شيء عن قصد وحكمة.

ثم كان موقف أرسطو أن رتب طريق الوصول إلى المعرفة عن طريق ثلاث مراحل هي الإدراك الحسي ثم التجربة ثم التأمل النظري للوصول إلى الاستنتاج والحكم. ورأى أن الأشياء تنشأ عن علل أربع: هي المادية والصورية والفاعلة والغائية، ولما كانت الغائية مقصود الفاعل والصورية هي ثمرة فعله بقي أن الأمر منحصر في البحث عن أصل العلة المادية فحسب، ومن ثمَّ هناك مادة قديمة ليس لها أي صورة، ومن ثمَّ فهي ليست إلا عبارة عن قابلية التلقي، فكأنها العدم ذاته وقد سماها بالهيولى، ولذلك فالعالم قديم بمادته وصورته وحركته ومحركه، وهذا المحرك الذي أعطى العالم صورته وحركته هو الله[3].

ثم أصيبت فلسفة الوجود بنكسة مادية عند الرواقيين والأبيقوريين أدت إلى ظهور الشكاك اللاأدريين والاحتماليين، إلى أن ظهرت في الإسكندرية الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وأكدت وجود إله خالق للكون. فتكرر الدور الأول بدءاً بالمادية فالشك فاليقين بوجود الله.

---

1) أفلاطون لأحمد فؤاد الأهواني ص126.

2) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص10. فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص22. وانظر للتوسع في هذا المطلب: مصادر المعرفة للزنيدي ص103-107.

3) قصة الإيمان للجسر ص 37-44.

أما الرواقية فكانت قد ارتابت في قدرة العقل على الوصول إلى معرفة الأحكام الكلية لأنها مبينة على ما تلقت خلال الحياة من إحساسات جزئية، ولذلك فالحقيقة إنما تعرف عن طريق الشعور الذي يغلب على النفس بقوة حتى لا يكون لإنكاره سبيل. وفسروا أصل الوجود بالمادة وقـوة تمـدها بالحركـة وغيرها من أشكالها وهذه القوة هي النار، والله هو النار الأولى صدر عنها الهواء وعنه الماء وعنه التراب، ثم سيعود كل شيء إلى النار، وهكذا مراراً، والله هو نفس العالم، والعالم هو جسمه.

وأما الابيقورية فإنهم في نظرية المعرفة يتفقون مع أرسطو بأن مصدر المعرفة هو ملاحظة مجموع الإدراكات الحسية بواسطة العقل للوصول بها إلى الأحكام الكلية، ولكننا نتعرض للخطأ عندما نحـاول تجاوز ما جاءت به الحواس للوصول إلى رأي في الأسباب الحقيقية التي تختبئ وراء الظواهر. ثـم يأخذ ابيقور بقول ديموقريطس إن أصل الوجود هو الذرات لكنه يزعم أنها تتحرك ذاتيا بتأثير ثقلهـا إلى الأسفل، غير أنها تنحرف قليلاً في أثناء سقوطها فتلتقي وتؤلف الأجسام المركبـة وقـد نـشأت الحياة عن هذا التركيب اتفاقاً بطريق المصادفة[1].

واستمر حال الفلاسفة اليونانيين كذلك إلى أن جاءت النصرانية، فكان موقف أتباع هاتين المدرستين من مقالة دعاتها الاستهزاء والسخرية عند سماعهم لكلام بولس في بيانه لتعاليم النصرانية وعقيـدة قيامة الأموات[2]. ولكن أوربة بعد ذلك تحولت كلها إلى المسيحية.

وبالنتيجة: فإن الديانة الوثنية اليونانية ديانة صنعها البشر، وملامح المقـولات المبثوثـة داخـل فلسفاتهم مما يبدو مستفاداً من الرسالات السماوية هي مقولات وصلتهم محرفة بأيد بشرية - وأمـا الوحي فيها فكان كالصوت الخافت الذي لا يكاد يسمع -، فضمنوها في داخل فلسفاتهم، التي كانـت بدورها هي الأخرى فلسفات بشرية، وقد حملت داخل أحشائها أول صياغة صـريحة للـدعوة إلـى الأنسنة المطلقة في كل مجال من المجالات، وهذا على لسان أشهر السوفـسطائيين بروتـاغوراس، وذلك بقوله: (إن الإنسان مقياس كل شيء). وهذا كما هو واضح ليس تحكيماً للعقل البـشري فـي الحكم على الحقائق، فإنه على يد أشهر السوفسطائيين، وإنما هو تحكيم للشعور أو الرأي أو المزاج المحض بشكل مطلق عن القول بالإذعان لثبوت شيء من الحقائق أصلاً.

---

1) قصة الإيمان للجسر ص46-48.

2) تاريخ الفلسفة اليونانية ص253. مصادر المعرفة للزنيدي ص109.

المطلب الثالث: الوحي في النصرانية:

ليس بالإمكان اسقصاء كل ما يمكن أن يتصل بأنسنة الوحي من دراسة النصرانية، أعني مصادر الكنيسة ونصوصها المقدسة. والعقائد التي انتهت إليها الكنيسة وحاولت فرضها على الناس. والأسرار الكنسية وطقوس العبادة. ومنزلة رجال الدين (الاكليروس) في البناء الكنسي. وما اتهم العلمانيون به الكنيسة من الاستخفاف بعقول الناس. وتفسيراتها الغريبة لحقائق الأشياء. والعجز التام عن إقناع معارضيها وأتباعها على حد سواء[1]. ولكنا نقتصر على أكثر ذلك صلة بموضوعنا وهو الوحي نفسه.

يعرف النصارى النبي بأنه رجل دعاه الله ليمثله على الأرض ويتكلم بالنيابة عنه. والصورة التي مرت بنا في الحديث عن الوحي في اليهودية بحيث إنَّ الموحى إليه يرى ذات الرب حين الوحي في صورة شخص هي أكثر صور الوحي لأغلب الأنبياء سواء في العهد القديم أو الجديد، فضلاً عن إلى صور أخرى، كأن ينادى عليه ولا يعرف مصدر النداء، سواء كان من الله أم من الملك.

والنبوة لديهم مستمرة لا تنقطع. خاصة أنهم يتبنون مقولة مفادها أن الكنيسة ليست هي البناء وإنما هي جماعة المؤمنين إذا التقوا وأخلصوا نياتهم فإن روح القدس يكون معهم يؤيدهم ويلهمهم، ومن ثمَّ فإن الاتصال بروح القدس أمر لا ينقطع، وهو أمر إرادي، إذ لا يقوم على الاجتباء الإلهي، بل على التطلب الاختياري من قبل الجماعة. وبالنتيجة فإن حقيقة الأمر استيحاء لا إيحاء. وهنا يظهر الجانب البارز للتصرف البشري الإنسي في أصل تحقق وجود الوحي قبل الحديث حتى عن فهمه أو تفسيره وتأويله.

ويقولون: إن روح القدس الذي حلَّ في مريم لدى البشارة، وعلى المسيح في العماد على صورة حمامة، وعلى الرسل من بعد صعود المسيح، ولا يزال ينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة ليرشدهم، ليس إلا روح الله وحياته، إله حق من إله حق[2].

ولا يعتقد المسيحيون في خصوص الإنجيل الوحيَ الحرفي الذي يعتقده المسلمون في القرآن، فهم لا يقولون بأن الأناجيل نزلت على كاتبيها من الله أو الملائكة كلمة كلمة، بل كتبت على يد تلاميذ

1) الإسلام في مواجهة الإيديولجيات المعاصرة للدكتور عبدالعظيم المطعني ص 69-70.

2) الموسوعة الميسرة ص569، 653، 1170.

المسيح وتلاميذهم. وذلك أن الله U قد أوحى لرجاله بالمعنى فقط ثم ترك حرية التعبير لكاتب السفر، فإنه يحرك باطناً كاتباً يختاره، فيبعثه على كتابة السفر المقصود، ثم يمده ويلهمه اختيـــار الحـــوادث والظروف والأعمال والأقوال التي شاء رقمها لفائدة عباده. وكان له رقيباً ومرشداً، وعـــصمه مـــن الخطأ في نقلها وتسطيرها إفراداً وإجمالاً، بحيث إنه لا ينقل إلا ما ألهمه الله إياه. وهـــذا كـــافٍ لأن يعزى الكتاب إلى الله.

وهذا الرأي في الواقع دون سند موثق من الكتاب المقدس، ولعل صاحبه أو القائل به أراد أن يهـــرب من تلك التناقضات الغريبة التي تتضح لمطالع الكتاب المقـــدس مبرهِنـــة علـــى أصـــله البـــشري لا الإلهي[1].

ويرون أن الأنبياء والحواريين وإن كانوا قابلي السهو والنسيان في الأمور جميعهـــا، لكـــنهم إنمـــا يكونون معصومين في تبليغ الوحي فقط، تقريراً كان أو تحريراً. لكن هذا الادعاء بالعصمة في تبليـــغ الوحي لا يتماسك هو الآخر عند التحقيق[2]. وعلى سبيل المثال فإن يوحنا صاحب الإنجيل في الحقيقة غير يوحنا الحواري، وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية أنه لا مرية في كونه كتاباً مـــزوراً، أراد صاحبه المضادة بين اثنين من الحواريين هما يوحنا ومتى. ومع ذلك ادعى هذا الكاتب أنه الحـــواري الذي يحبه المسيح[3].

من المعلوم أن مصادر المسيحية هي: الأناجيل الأربعة، ورسائل بولس الأربع عشرة، وأعمال الرسل. وهي تسمى بـــ (العهد الجديد) تمييزا عن العهد القديم الذي يخص اليهود، وهو التوراة وملحقاتهـــا. ومجموعهما يكون (الكتاب المقدس). وعلى الرغم من الانفصال بـــين اليهوديـــة والمـــسيحية يعـــدُّ المسيحيون العهد القديم جزءاً من الكتاب المقدس، يجب على كل مسيحي الإيمان به.

وبناءً عليه لا يقصد بالوحي لدى النصارى إنجيل عيسى u . وهذا إذا استثنينا المتقدمين جداً مـــنهم من أمثال ترتوليان (165-220 م) فإن تشديده على تفضيل الإنجيل على كل جهد بشري مـــع تقـــدم زمانه وقربه من عيسى u قد يمكن تفسيره بأن سببه هو حديثه عن إنجيل عيسى الذي هو الوحي. وأمّا بعد ذلك فلا أحد يجادل في أن الجهد البشري كان له دور كبير في تـــأليف الأناجيـــل المعتمـــدة

1) عقيدة النصارى بين القرآن الكريم والسنة الشريفة ص 12-15.

2) إظهار الحق ص218

3) المسيحية ص209-213 ؛ الديانات والعقائد لأحمد عبدالغفور عطار 320/3.

اليوم[1].

كل ذلك يسوقنا إلى أن نذكر ما قاله ألان دي ليل من فلاسفة العصور الوسطى: (إن الوحي صنم أنفه من شمع، وينثني وفقا لمشيئة العالم)[2]، وكما يرى ألفرد جارفي فإن أهدافاً سيئة كانت وراء تلك التعديلات، منذ دخول الأناجيل بلاد اليونان وتأثرها بفلسفة الإغريق والقانون الروماني حتى غدت لا تمثل الحقيقة[3].وعلى حد قول الكاتب المسيحي برنتن: إنها ديانة مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين الذين كانوا في الجليل. ولو أن المرء عد العهد الجديد (الآناجيل وأعمال الرسل) التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب، بل لخرج بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتاً[4].

وعلى الرغم من معرفتهم بكل ذلك تؤكد الكنيسة بحزم وإصرار أن الأناجيل الأربعة تَنقل بأمانة ما فعله وعلمه المسيح ابن الله، فالكتَّاب المقدسون ألفوا الأناجيل الأربعة، بحيث يكشفون دوماً عن المسيح أشياء حقيقية وصادقة. وأنه إن ظهر لأحد في موضع من المواضع في تحريرها اختلاف أو محال عقلي، فذلك دليل نقصان علمه وفهمه.

ويمكن أن نقول إن فلاسفة المسيحية في العصور الوسطى تتمثل مواقفهم من الوحي في:

1. موقف من يرى أن في الوحي غنية عن أي مصدر سواه، لأن الحق محصور فيه، ومن ثم فما سواه باطل مرفوض.
2. وموقف من يرى أن العقل وسيلة لفهم الوحي، وأن هذا الأخير هو السلطان المتبع، فعلى الأول أن يكون مؤيداً وخادماً له.
3. وموقف من يرى أن العقل والوحي مصدران للمعرفة:

أ- فبعضهم يرى أن لكل منهما مجالاً خاصاً يقدم المعرفة فيه دون الآخر، للعقل الحقائق العقلية، وللوحي ما فوق الطبيعة.

---

1) عقيدة النصارى بين القرآن الكريم والسنة الشريفة ص 12-15.

2) تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص109.

3) المسيحية ص215.

4) الإسلام في مواجهة الإيديولجيات المعاصرة ص 21. وهو ينقل عن كتاب: أفكار ورجال ص 207.

ب- وآخرون يرون أن العقل أوثق من النقل، فإن اتفقا فذاك، وإلا فإن المقدم هو العقل.

4. وموقف من لا يرى للوحي أي قيمة علمية في مقابل البراهين الفلسفية أو التجربة، أو هما معاً[1].

وبدءاً من نهاية العصر الوسيط في القرن الرابع عشر الميلادي صارت الغلبة المعرفية لدى الأساتذة الجامعيين وكثير من رجال الدين لصالح الفلسفة والعلم التجريبي، والفصل بينهما وبين الإيمان بالوحي. إذ القيمة العلمية إنما تحصل بالبراهين الفلسفية لدى بعضهم وبالتجربة لدى آخرين وبهما جميعاً لدى غيرهم. أمَّا الوحي فالإيمان به مجرد من الصفة العلمية[2].

وبالنتيجة: فإننا بهذا نعلم أن أصل الأصول في الديانة المسيحية يكتنفه قدر هائل من الشكوك والاضطراب، حتى وصفه بعضهم بالأدب المفكك، وهو أمر يفتح الباب على مصراعيه متيحاً المجال الواسع لحرية تطبيق مقولات الفينومينولوجيا واستعمال وتفكيكية دريدا والمنهج الهرمينوطيقي، من أجل محاولة البحث عن الحقيقة المختفية وراء حروف النص وكلماته وبين سطوره، من أجل اكتشاف المسكوت عنه من خلال المفصح عنه. أو أن يزاح عن أصل النص الموحى به أو الواقعة التاريخية التضخيم الذي أضافه الخيال البشري.

المبحث الثالث: الوحي في الفكر الحديث

المطلب الأول: الوحي عند فلاسفة الغرب المحدثين:

كان الدين الكنسي مسيطراً في العصور الوسطى على جميع جوانب الحياة العامة وعلى الجانب الفكري خاصة، حتى كان لا يُتحرك إلاَّ في إطاره، وتحت هيمنته، ومن ثم كانت الفلسفة في الأغلب خادمة له. لكن الأمر اختلف بعد ذلك حينما انحسرت تلك السيطرة وصارت الفلسفة تتحرك في حرية تصل إلى فوضى الأفكار والنظريات. ويمكن تجميع مواقف فلاسفة الغرب من الوحي في هذه الظروف متمثلة في ثلاثة مواقف:

1. موقف من يرى ما في الكتب المقدسة وحياً إلهياً وأنه مصدر الحقيقة الأكبر، والأعظم ثقة من

---

1) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي للزنيدي ص 584- 585.

2) تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص 52، 109، 204، 241 ؛ وانظر: فلسفة العصور الوسطى ص36

غيره. ولكن هؤلاء قليلون، ومنهم بلانش وفلسيتي لامني (1854م) الذي ينتقد أصحاب الـرأي التالي بأنهم متناقضون بقبول الوحي ورفض مقتضياته[1]. وقد حاول هؤلاء التـشكيك بـصحة النظريات التي تتناقض مع العقائد الدينية[2]. وقد كان رينيه ديكارت من أشهر من أخـذ بهـذا الموقف، حيث أقام منهجه في المعرفة على الحدس والاستنباط العقليين، مستثنياً حقائق الوحي بوصفها فوق متناول العقل[3]. غير أن انقضاء العصور الوسطى حمل معه الدراسـات النقديـة التي طالت الكتاب المقدس، مما أفسح المجال للموقفين الآتيين.

2. **موقف من يتصور أن هناك وحياً إلهياً ولكنه مختلط بغيره، فيجب تصفية هذا الوحي من خـلال العقل البشري. فهذا يتبنى الإيمان بأصل الوحي المنزل من الله للإنسان من أجل هدايتـه فـي نطاق فهمه وقدراته العقلية، والنظر إلى العقائد الموجودة على هذا الأساس فما فهمه وقبله في دائرة الإمكان فهو وحي وإلا فمن وضع البشر. وقد وجد هذا لدى مجموعة من الفلاسفة مـن أشهرهم سبينوزا (1677م)، ولبيتنز (1716م)، وعمانوئيل كانت (1804م)، ومن هنـا جـاءت فكرة الدين الطبيعي أو دين العقل، وهو يتكون من العقائد المسيحية التي تقبل التعليل العقلي[4]. فجاء أتباع سوسين الإيطالي فأكدوا وجود الوحي لكنهم أنكروا بعضاً من عقائد الكنيسة كالتثليث والتجسد[5]. فكانوا فلاسفة يؤمنون بوجود الله وقدرته وتدبيره للكون لكنهم لا يخضعون لما في كتب الأديان من عقائد أخرى وتفاصيل.**

3. **موقف غالب الفلاسفة وخاصة في هذا القرن أنه ليس ثمة وحي إلهي وكل ما جاءت به الأديان وجميع المعتقدات إنتاج بشري، يرى بعضهم أن الإنسان استمده من عقلـه المجـرد[6]، وقـال بعضهم مصدره العاطفة والوجدان، كهيجل الذي يراه فناً باطنياً يصور الحقيقة الإلهية[7].**

ومن هؤلاء من يسمون بأنصار نزعة التنوير التي حمي وطيسها ضد الكنيسة في القرن الثامن عشر

---

1) تاريخ الفلسفة الحديثة ص312. الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي ص325.

2) المدخل إلى الفلسفة ص285.

3) قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص179. مشكلة الفلسفة لزكريا إبراهيم ص192. أسس الفلسفة ص345.

4) تاريخ الفلسفة الحديثة ص106، 116، 123، 140. فلسفة الدين والتربية عند كانت ص13، 17.

5) الفكر الإسلامي الحديث ص316.

6) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص28.

7) مشكلة الفلسفة ص193.

لدرجة السخرية بالكتاب المقدس، ونعته بأنه: مجموعة من الكتب ألفها أناس امتلؤوا بالأحكام السائدة في أيامهم، وتناولتها أيدي التعديل والتبديل وفقاً لحاجات العصر ودرجة الفهم[1]. ووفقاً لهذا الموقف طرأ تطور على الدين الطبيعي لدى بودان (1596م) وهربرت يوهان(1841م)[2] إذ يشتمل الدين على ما يقوم على الفطرة البشرية والعقل الذي يستطيع التمييز بين الخير والشر، وأمَّا ما لا يصل إليه الإنسان بفطرته فضلال ألحق بالدين الذي يقوم على العقل فقط[3]. وانتهى هذا الموقف بالاتجاه الوضعي في نظرية المعرفة، الذي جعل الواقع مصدر المعرفة الوحيد. فالمعرفة دائرة بين الإنسان والطبيعة ولا شيء وراءهما إلا الوهم والخيال.

ويرى أوجست كونت (1798 – 1858م) أحد مشيدي الوضعية أن العلم الطبيعي المادي ينبغي أن يحل محل اللاهوت، وأن يضايقه كما ضايقه اللاهوت من قبل.

ومنهم كذلك الفيلسوف الألماني فايرباخ (1872م) الذي قال بفكرة التعويض إذْ يرى أن الدين هو علم الإنسان، وهو محصول للعقل الإنساني وليس موحى به من خارج الإنسان ولما كان علم الإنسان الحاضر هو العلم المادي، فيكون هو الدين، والله هو الإنسان إذا تخلى عن قيوده الفردية والشخصية. فالإلهية هي الإنسانية. وعليه فيجب أن نضع مكان الدين ومحبة الله الإنسانَ كدين وحيد، وأن نضع مكان الإيمان بالله الإيمان بالإنسان نفسه، وبإمكانياته وقدراته، والإيمان بأن تقرير المصير للإنسانية ليس من طبيعة خارجة عنها أو فوقها[4].

وعلى هذا الموقف أيضاً الماركسيون والوجوديون الذين ينكرون وجود الله، ويعدُّونه وهما عاش مدة في عقول الناس ثم ذهب إلى غير رجعة، فالماركسيون يقولون صراحة: (إن فرضية وجود الله أصبحت عديمة الجدوى)[5]. أمَّا بعض الوجوديين فقد تزعموا مهمة تخليص الفلسفة من فكرة (الله) إذ اعتبروا أن الله كان يحدثنا ثم صمت فلم يعد في وسعنا الآن سوى أن نلمس منه جثة هامدة[6]. وإذا سقط القول بوجود الله لم يعد للبحث في وحي ينزل على الخلق مجال.

---

1) إيمانويل كانت ص78.

2) الموسوعة العربية الميسرة ص426، 1893.

3) عصر الإلحاد لمحمد تقي الأميني ص64.

4) الفكر الإسلامي الحديث ص352.

5) النظرية المادية في المعرفة ص11.

6) مشكلة الفلسفة ص200.

والاجتماعيون الملحدون يفسرون نشأة العقيدة لدى الإنسان وصورها الأولى فيجعلونها منبعثة من نفسه تحت دوافع طبيعية ونفسية وغيرها، متشكلة أوضاعها حسب مستوى ذكائه وظروف حياته، فهي تعود إلى الإنسان ولا أثر لمصدر خارجي فيها البتة.

وقد استحوذ هذا الموقف بمذاهبه الوضعية والماركسية والوجودية على فئات من البشر، متمثلاً بالإلحاد في ميادين الفلسفة والأدب وغيرها.

أمَّا ما حمل هؤلاء الفلاسفة على هذه المواقف النافرة من الوحي الماقتة له، فهو أن هؤلاء كانوا ينظرون وهم يصدرون أحكامهم ويتخذون مواقفهم إلى واقع ماثل أمامهم، هو ما جاءت به الكنيسة من تعاليم أطلقت عليها وحياً، فقد كانت مناط بحثهم في الغالب، وما يرتبط بهذه التعاليم والدين تاريخ، فقد كان الدين السائد في العصور الوسطى في أوربا، التي فرضت فيها الكنيسة هيمنتها على الناس، وجعلت مصائر الناس بأيدي رجالها، وحجرت على العقول أن تتحرك خارج إطار تعاليمها، وما تقرره وتتبناه، كل هذا من أجل الوحي المتمثل بكتبها المقدسة وشروحها، الذي جاء بالحقيقة الكاملة والحق المطلق في كل شأن تناوله، وهو صورة الدين الماثلة بين أعينهم وهم يتكلمون عنه[1].

وقد قام الموقفان الأخيران لديهم بناء على نظرتهم إلى الوحي من خلال جانبين:

1. عدم الثقة بثبوت نسبته إلى مصدره وهو الله تعالى: فمما هو واضح حتى في أذهان كثير من الممحصين من الفلاسفة الغربيين أن الشك محيط بتلك الأناجيل، فهي مشكوك في أصولها ومجهولة تواريخ كتابتها، ومختلف في بعض واضعيها، مما يزيد الريبة في نسبتها إلى الله[2].
2. تناقضه مع العلم الحديث: حيث قامت النهضة العلمية في أوربا وحل عصرٌ هيمن المنهج التجريبي فيه على الميدان العلمي، فتصادمت حقائق العلم مع ما هو مقرر في الكتب المقدسة وشروحها، ولاسيمًا تلك الشروح التي أدخلت في العهد المدرسي - (من أواخر القرن الثامن إلى بداية عصر النهضة، إذ كان التعليم يتم في المدارس التي تدرس الكتب المقدسة وفلسفة أرسطو)- حيث شرحت الكتب المقدسة على أساس الطبيعيات اليونانية، ووظفت المعارف العلمية لتدعيم الكتاب المقدس ونُبذ ما بدا غير متوافق معه، وعُرض في معرض الشك

1) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي: د.عبدالرحمن بن زيد الزنيدي ص124-133.

2) وهو ما سبق بيانه عنه في أثناء الحديث عن الوحي في النصرانية.

والإنكار[1]. لكن لما أثبت العلم الحديث بعض هذه النظريات المرفوضة، أدى ذلك إلى إحساس جيل النهضة بأن معطيات الوحي ومعطيات العلم الطبيعي شيئان متنافران، ولا يمكن الجمع بينهما من قبل شخص واحد إلا على حساب ازدواج في شخصيته، بأن يقيم في ذهنه بصورة منفصلة وجهتي نظر متناقضتين[2]. ولكن لما كان هذا أمراً في غاية الصعوبة اقتضى الحال اختيار إحدى الوجهتين ونبذ الأخرى. فكان ما أثبته العصر الحديث من حقائق العلم الطبيعي دافعاً للانحياز إلى جانب كل ما هو من مقولات هذا الأخير على حساب كل ما هو من المقولات الكنسية. وبلغ ذلك حد الإفراط، أي حتى ولولم تكن المقولات الطبيعية بالغة حد الحقائق. كما يشير إلى ذلك قول جيمس جينز (إن في عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق)[3] فصار الأمر إلى ما يمكن عَدَّهُ أيديولوجيا وضعية، كان موقفها المتحدي للكنيسة أحد أهم وسائل اكتسابها لأنصارها. وهذا آرثو كيث يقول: (إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه)[4] أي لأنه الذي يقول به الوحي.

المطلب الثاني: الوحي عند المستشرقين:

كانت نظرة فلاسفة الغرب إلى الوحي في الإسلام أسوأ من نظرتهم إلى تعاليم الكنيسة، من حيث كونها علماً إلهياً، لأنهم في رأيهم يقيسون الإسلام على المسيحية بقياس الأولى، فإن من قرأ منهم عن الإسلام اعتمد على المستشرقين الذين تواطؤوا على القول ببشريته[5]. مطبقين عن قصد نظرة فلاسفة الغرب إلى الوحي المسيحي على الإسلام، فأوردوا شبهاتهم عليه وعابوه، وأشاعوا ذلك حتى غرسوا هذه الأفكار المسمومة عن الإسلام ووحيه في أذهان فلاسفة الغرب وأبنائه عامة.

وقد أثار المستشرقون حول الوحي الذي جاء به محمد r شبهاً تتناول ظاهرة الوحي، وجمع القرآن، وكتابته، وجمع السنة، وتمحيصها، وكلها قائمة على الهوى، والأحكام المسبقة كما اعترف كثير من

1) المدخل إلى الفلسفة ص285.

2) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص32.

3) الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان ص42.

4) الإسلام يتحدى ص43.

5) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي للزنيدي ص 586.

متأخريهم بذلك.

واتفق جل المستشرقين قديماً وحديثاً على أن الوحي لا يمكن أن يكون واقعة مستقلة عن كيان الرسول r ونفسيته أو شعوره، وإن كانت اختلفت تعبيراتهم وصياغاتهم في ذلك فَعَدَّ بعضهم ما يتنزل على النبي r حالة مرضية وصفها بعضهم بالصرع أو الهوس، أو الهستريا أو الهلوسة والهذيان وآخرون بالاستبطان أو الشعور الداخلي أو التصوف العميق، وغيرهم بالاتصال بالشياطين[(1)]. ثم بدأوا يتخلون عن ذلك منذ بداية القرن العشرين أمام الانتقادات التي وُجِّهت إليهم من داخل مدرستهم[(2)].

وكله بلا ريب كلام كاذب باطل، فإن الذي يصيبه الصرع مثلاً يغيب وعيه ويصفر لونه، وعندما يفيق من غيبوبته لا يدري ولا يذكر شيئاً مما جرى على لسانه. وأمَّا اتصال الملك بالرسول فكان يسبب له إشراقًا في وجهه، وإنما يسمع الجالسون دوياً عند رأسه كدوي النحل، ويقوم الرسول وقد وعى كل ما أخبره به الملك[(3)].

ويشرح بعض المستشرقين دعواهم كون الوحي المحمدي شعوراً داخلياً أو حالة نفسية بأنها رغبات وطاقات وصلت إلى شعور محمد r من لا شعوره وإلى وعيه من لا وعيه، فتولد منها هذا الوحي، وأن هذا اللاشعور قد يكون الجمعي الذي تتراكم فيه الرغبات أو الطاقات في مجتمع ما، ثم تتجمع في لا شعور فرد من أفراد المجتمع، ليقوم بالتعبير عن مجتمعه ككل. ومن ذلك ما ردده في هذا الصدد جولد تسيهر وبلاشير وغيرهما[(4)].

ويطرح المستشرق الإنكليزي ج. ر. هاوتينغ[(5)] شبهته لنفي كون القرآن وحياً ظهر في جزيرة العرب

1) انظر: دفاع عن محمد r د.عبدالرحمن بدوي ص 57 –67 ؛ الوحي والقرآن والنبوة: هشام جعيط ص 96 ؛ نافذة على الإسلام: لأركون ص134 ؛ الإسلام والغرب: روم لاندو ص 32.

2) انظر: دفاع عن محمد r: بدوي ص 59، 63.

3) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ص1169-1171.

4) انظر: موقف الفكر العلماني العربي من النص القرآني د.أحمد الطعان الحاج ص 491؛ الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر: مونتجمري وات ص 53، 206 - 209.

5) جيرالد ريتشارد هاوتنغ Gerald R. Hawting من مواليد 1944، من المستشرقين الإنكليز. أستاذ كرسي تاريخ الشرق الأوسط والأدنى، في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) جامعة لندن، حيث أتم تحصيله فيها بإشراف برنارد لويس وجون وانسبرغ، وحصل على الدكتوراه سنة 1978م. أهم مؤلفاته:

- The First Dynasty of Islam (1986), translated two volumes in the Tabari Translation Project

التي كانت تعيش تلك الظروف الزمانية والمكانية المعروفة تاريخياً. لكي ينفذ من خلال ذلك إلى القول بأن عدم الانسجام المزعوم هذا بين القرآن وبين المجتمع الذي توجه بالخطاب إليه دليل علـــى أنـــه مجتث من بيئات أخرى كبلاد الروم والفرس، أو عن فلسفات أخـــرى كالرومانيـــة والإغيريقيـــة، أو مقتبس عن أقوام آخرين كاليهود والنصارى، مستدلاً على ذلك بما ظنه من أن المشركين من العـــرب ما كانوا يعرفون الله تعالى أصلاً، وأنهم إنما كانوا مجرد عبدة أصنام، ولما كان القرآن يصف حـــال المخاطبين بمثل قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[لقمـــان:25] وقولـــه: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[الزمر:3] حسب أنه وقع على دليل يبرهن به على دعواه[1].

والمتأمل في مضمون هذه الشبهة يجد أنها تجمع بين التشكيك في مصدر النص، والتشكيك في نجاح علاقته بالمجتمع الذي خاطبه. ولكن قد فات صاحبها أن أدلة التاريخ تشهد بأن العرب كانوا يعرفون الله ويسمونه بهذا الاسم، وأنهم كانوا في الأصل على دين الحنيفية دين إبراهيم وإســـماعيل عليهمـــا السلام، وأن عبادة الأصنام إنما دخلت عليهم طارئة واردة إليهم من خارج الجزيرة العربيـــة، وأنـــه حتى بعثة النبي r لم يزل فيهم أفراد ممن يأبون عبادة الأصنام، ويتمسكون بتوحيد الله تعـــالى فـــي عقيدتهم فضلا عن أن يكون سائرهم يقرون بوجوده سبحانه، وأن أشعار العرب هي ديوانهم الشاهد على شتى جوانب حياتهم الاجتماعية والدينية وغير ذلك، وأن من أولئك الحنفاء من كان يعيش فـــي الحجاز بل مكة نفسها، ومنهم من أدركه النبي r قبل بعثته كزيد بن عمرو بن نفيـــل، ومـــنهم مـــن لقيه r بعد البعثة وعدد منهم آمن وصار من صحابته، فأين كل هذا من دعوى أن العرب أو أهل مكة كانوا مجرد وثنيين يعبدون الأصنام!!. إنما الأمر عبارة عن مجرد اتباع لأحكـــام المـــزاج والتوســـم والهوى، كما هو دأب المستشرقين من أسلافه.

وأمَّا من جانب السنة فهناك الشبهات المشهورة التي طرحها المستشرقون منذ عقود حول صحة نقل الحديث النبوي، وتلقفها بعض المنتسبين إلى الاتجاه العلماني العربي. وقد نشط فيها جولـــد تـــسيهر

(vols. 17, 20),

- The Idea of Idolatry and the Rise of Islam: From Polemic to History., 1999 Cambridge University Press
- Approaches to the Quran, ed. (1993) **See**: http://en.wikipedia.org/wiki/G.R._Hawting

1) [نظرية عبادة الأصنام وظهور الإســـلام]. The Idea of Idolatry and the Emergence of Islam: GR Hawting p. 26-28

وجب وغيرهما من المستشرقين.

وقام بمهمة الرد عليهم وبيان زيف دعاويهم في أمثال هذه الشبهات عدد من علماء المسلمين منهم على سبيل المثال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، والدكتور نور الدين عتر والدكتور محمد عجاج الخطيب والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظهم الله، وعدد غير قليل سواهم، بين مفصل ومختصر في تفنيد تلك الدعاوى.

ونتيجة لما سبق فإن الباحث الحر في مصادر المعرفة، يجب عليه وهو يتناول الوحي في الإسلام أن لا يعتمد على أحكام هذه الدراسات الاستشراقية، وأن يدرسه من خلال القواعد الآتية:

أ- الاعتماد على العقل الفطري المجرد، دون الأحكام العاطفية المسبقة.

ب- أن يبحث فيه من خلال المصادر الصحيحة عنه، لا من تصورات المعادين له.

ج- أن يكون مستعداً للاعتراف بالحق الذي يصل إليه ولو خالف معتقداته.

المطلب الثالث: الوحي في الفكر العلماني العربي:

ربما تعبر مقولة الدكتور خالد مدحت أبو الفضل عن نموذج من الأفكار مما يحاول أن يصوغه أو يتصيده أصحاب الفكر العلماني من المواقف الإسلامية ليتخذوا من ذلك غطاء يمررون من ورائه ما يرمون إليه في مسألة الوحي، وهو يقول فيها: (لقد عالج الفقهاء المسلمون ما إذا كان يقع على عاتق المسلم – أو لا يقع- واجب العثور على الإجابة الصحيحة لمشكلة نص، وهذا – بطبيعة الحال- يتوقف على ما إذا كانت هناك إجابة صحيحة في النهاية. ولطرح المسألة من زاوية أخرى، نتساءل: هل يقصد مؤلف النص نتيجة محددة؟. !!. وهل الباحث مطالب باكتشافها؟. !!)(1)

فقد شاع الانتقاص من موثوقية القرآن على لسان العلمانيين منذ أن طعن طه حسين في خبر القرآن الكريم حول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فقال: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودها التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ... ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من

1) الاستبداد والمرجعية في الخطاب الإسلامي: خالد أبو الفضل ص 85-91.

جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى)[1]. وقد كرر هؤلاء من حينها كل ما ردده المستشرقون في شأن الوحي بشكل سافر، حتى أن الدكتور أحمد الطعان يقول في رسالته: (لقد التزمنا في هذا الباب من الدراسة أن نتجنب الحديث عن الأثر الاستشراقي في كتابات العلمانيين قدر الإمكان وذلك لأن دراستنا ستتضخم جداً لو ذهبنا نقارن بين الكتابات الاستشراقية والكتابات العلمانية، ذلك أن السطو العلماني على الفكر الاستشراقي قد بلغ مدىً بعيداً، بحيث يحتاج إلى دراسة مستقلة)[2].

فهم يرددون كلام سبينوزا وليبتنز وكانط وسوسين وكهيجل وبودان وهربرت يوهان وأوجست كونت وفايرباخ وجيمس جينز وآرثو كيث وآراء الوضعيين والماركسيين والوجوديين والاجتماعيين الملحدين التي سبق الحديث عنها. كما يكررون كلام المستشرقين نفسه في شأن الوحي، من أن المطلوب أن نتعامل مع القرآن على أنه نص تاريخي خضع لما تخضع له النصوص التاريخية، وأن نُراجع توثيق القرآن الكريم وتصحيحه، فهناك الكثير الذي يجب إنجازه. وأصبح الحديث عن جمع القرآن من هذا المنظور الاستشراقي هواية للعلمانيين، فالطريق إلى الشهرة والمجد يصبح قصيراً جداً إذا ما طعن العلماني في عقائد الأمة وثوابتها، لأن الأمة لن تسكت له وسترد عليه، وتشهِّر به، وقد تحاكمه، وهو ما يحلم به كثير من العلمانيين ويكتبون كثيراً من عبثهم لتحقيق هذه الغاية حتى ولولم يصلوا إلى طائل، فالكلام الذي قرأناه لطيب تيزيني يردده أيضاً سيد القمني ورشيد الخيون[3]، وجميعهم ينقل عن جولد تسيهر، وبلاشير، ونولدكه، وهنري ماسيه، وغيرهم من المستشرقين.

هكذا تكلم نصر حامد أبو زيد فحظي باحتفاء الرؤساء والإعلام واحتضان الجامعات الغربية، وأصبح الناشرون يتنافسون لطباعة مؤلفاته. كل ذلك لأنه قال: (لا نغالي إذا قلنا إن تثبيت النص الذي نزل متعدداً في قراءة قريش كان جزءاً من التوجيه الأيديولوجي لتحقيق السيادة القرشية). فقد قضي بنظره (على تعددية النص بإلغاء القراءات وتسويد قراءة قريش) وذلك أنَّ قريشاً استولت على الإسلام ذاته وحولته لأيديولوجيتها الخاصة، فانتشرت (عمليات المحو والإثبات على جميع

---

1) انظر: في الشعر الجاهلي: طه حسين ص 37.

2) موقف الفكر العلماني من النص القرآني د.أحمد الطعان ص 419.

3) انظر: النص القرآني: تيزيني ص 81، 254، 393، 395 ؛ العلمانية والممانعة الإسلامية: علي العميم ص 255. الأسطورة والتراث: القمني ص 244، 259 وما بعدهما؛ جدل التنزيل: رشيد الخيون ص 68.

المستويات... التاريخ... والأدلة الدينية.. ولم ينج القرآن من آثار عمليات المحو والإثبات تلك)[1]!!.

ويغلو أركون في تكرار آراء المستشرقين والمبشرين حول جمع القرآن الكريم، حتى لكأنه وُظِّف لهذا الغرض بالذات. وهذا طيب تيزيني يفعل ذلك هو الآخر وعلى طول كتابه (النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة) فلايفتأ يكرر مقولات هنري ماسيه، و دومينيك ســوردويل، وجــاك بيــرك، ولــوي غارديه، وجولد تسيهر، ومونتجمري وات، وبلاشير[2].

وهناك آخرون أيضاً من هؤلاء الذين تجرؤوا فوسموا كتاب الله بالتحريف والتزويــر مثــل: محمــد شحــرور وحسن حنفي ورشيد الخيون وغيرهم[3].

وتعبيراً عن تبعية نظر هؤلاء لمقولات فريق سبينوزا (1677م)، ولبيتنز (1716م)، وعمانوئيل كانت (1804م)، وغيرهم نجد الدكتور نظمي لوقا يردد القول بتبني ما يكون من العقائد موافقا للعقل، فمــا فهمه وقبله في دائرة الإمكان فهو وحي، وإلا فمن وضع البشر. على نحو ما سبق بيانه من موقــف هذا الفريق من فلاسفة الغرب المحدثين في الوحي[4].

وبعد عرض دقيق لواقع الفلسفة العربية المعاصرة - والعقبات التي تقف في طريقها من وجهة نظره - يشير د.تيزيني إلى أن الأساس الفكري الذي يتبناه الفكر الفلسفي العربي الراهن ويتخذه منهجا له ما هو في الحقيقية إلا استيراد المقولات الغربية حول العقلانية والتنوير والحداثة فيقول: (.... ولكن في هذا وذاك، نلاحظ أن معيار النظر إلى بنية هذا الإنتاج وإلى وظائفه ومستواه وآفاقه، يكمن فيمــا يقدمه الفكر العربي الراهن واحتياجاته إلى الفلسفة والإنتاج الفلسفي، في معاركه أو سعيه لتحقيــق قدر أو آخر من التقدم على قاعدة العقلانية والتنوير والحداثة والمشاركة في صنع العصر الجديد)[5]. في حين يأبى أن يكون النهوض الحضاري المنشود مبنياً على مبادئ الأمة وهويتها الذاتيــة!! كمــا

---

1) انظر: الخطاب والتأويل: نصر حامد أبو زيد: المقدمة و ص 37 – 39، 67 فمــا بعــد، 130، 135، 136، 166 - 169؛ الإمــام الشافعي وتأسيس الأيديولوجيا الوسطية: نصر حــامد أبو زيد ص 15 ؛ التفسير الماركسي للإسلام: د.عمارة ص 88.

2) انظر: النص القرآني: طيــب تيزينــي: ص 147، 148، 63، 386، 382، 248، 63، 190، 255،، 67، 73، 75، 79، 87، 110، 113، 177. موقف الفكر العلماني من النص القرآني: د.أحمد الطعان ص 617-620.

3) انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة: محمد شحرور ص 160 ؛ رسالة في اللاهــوت والــسياسة: حــسن حنفــي مقدمتــه لسبينوزا ص 22 ؛ جدل التنزيل: رشيد الخيون ص 23، 24، 36، 37.

4) محمد الرسالة والرسول لنظمي لوقا ص58.

5) آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.تيزيني ص162.

يشير إليه رده على محاولة د.المرزوقي شحذ همة الفكر العربي للنشاط استناداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[لقمان:17] بأن المرزوقي: (ينطلق من تحميل القرآن إياه ما لا يحتمله، وهـو أن يكون نصاً فلسفياً. وبهذا لم يضع يده على أن النص المذكور ليس هو ذلك، بقدر ما هـو نـص يحفز على التفكير بحدود إبيستيمولوجية تجد مرجعيتها القصوى في الوجود الإلهي ذاته. وفي هـذا وذاك غاب أمر ذو بال، هو أن الفكر الفلسفي العربي الإسلامي كان عليه أن يلف على الفكر الـديني التفقيهي، بدعم من النص القرآني الكريم، كي يكتسب أولاً إقراراً شرعياً بوجوده. وكي يحقق – على هذه الطريق - استقلاليته الذاتية النسبية الضرورية حيال الأنساق الذهنية المهيمنة في حينه ثانياً)[1].

وبذلك اتضح الأصل والسلوك والهدف، ورأينا أن كلامهم كلّه يدور حول دعوى تاريخية الوحي، وهو كلام ذو شقين:

الأول: ادعاء أن نص وحي الإسلام قد عبثت به الأيدي تبديلاً وتحريفاً، وذلك في جهـة نـصوص القرآن وجهة نصوص الحديث النبوي.

ويحاول د.تيزيني - مع أنه يقدم نفسه كمتمسك بالنهج العلماني المعتدل، إذ يعلن أنه يقر ضمناً بـأن القرآن وحي من عند الله - أن يحشر أي أثر ذي صلة بهذا الموضوع مهما كان حاله ليظهره علـى أنه شاهد على وقوع التلاعب بنصوص القرآن الكريم[2].

الثاني: ادعاء أن الأحكام التي دل عليها نص الوحي - بعد التسليم أو تجاوز مسألة ثبوته - لا يمكن اعتماده كنظام حياة لنهضة الدول العربية أو الإسلامية. ويقدم هذا الطرح من زوايا عدة:

1. لا تنسجم مع الواقع المعيش في هذا العصر المتسارع والمتراكم الأحداث والحافـل بـالتغيرات الهائلة في الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والصناعية...إلخ. وهو ذلـك النص الذي ظهر في تلك البيئة الزمانية والمكانية والاجتماعيـة بكـل ظروفهـا وملابـساتها ومشكلاتها، التي لا تتشابه بحال من الأحوال مع البيئة التي تعيشها مجتمعات اليوم.
2. القول بأنه إن كان التمسك بالدين مطلباً للشعوب العربية والإسلامية لا ينفك عن هويتها فإنـه لابد أن تحدد العلاقة بهذا النص من خلال ملاحظة أن القرآن – والحديث النبوي تبع له - كتاب

1) آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.تيزيني ص 266.

2) انظر: آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.تيزيني ص 167-172.

هداية وإيمان وفلاح أخروي، وليس كتاب علوم مادية ونظام دنيوي.

3. القول بأن الاجتهادات التي قام بها علماء المسلمين في السابق مبنية على نظرات قاصرة أو لا تتفق مع المعارف والعلوم والظروف الزمانية والمكانية التي نعيشها اليوم، ومن ثمَّ فلابد من إعادة النظر في تلك المسائل من خلال قراءات معاصرة تنبع من واقع الحياة. وأن يقوم بذلك أناس تشبعوا بروح الحضارة العصرية، لا بل يقوم بذلك كل فرد من الناس بحسب ما يتناسب مع ظروفه الخاصة التي تحيط به.

والعجيب بعد ملاحظة الرد السابق للدكتور تيزيني على د. المرزوقي أنهم يحاولون أن يصوروا أنفسهم مستندين في هذه النقاط الثلاث المتفرعة عن الشق الثاني إلى ركائز معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، منها ما يتصل بعلوم القرآن والسنة، ومنها ما يتصل بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ومنها ما يتصل بأصول الفقة، ومنها ما يتصل بتاريخ المذاهب الفقهية كمواقف أهل الرأي من أهل الحديث، ومنها ما يركز على بعض الأحكام الفقهية الخاصة بمسائل معينة، ومنها ما يتصل بالعقيدة كتبني مواقف بعض الفرق مثل المعتزلة بتحكيم العقل في النص.

فضلاً عن ركائز أخرى ترجع إلى مقولات المدارس الفلسفية والأدبية الحديثة. كتطبيق المناهج الأدبية الحديثة لنقد النصوص على نصوص الوحي. أو الاعتماد على مقولات ما بعد الحداثة لتبرير التخلي عن الامتثال لأوامر الدين، ومنها ما يقوم على أساس مقولات المعرفة ومصادرها، أو المنطق العقلي[(1)].

المطلب الرابع: نقد أنسنة ا لوحي:

خلصنا إلى أن المقولات العلمانية في شأن الوحي أصوات مملة ما هي إلا كترددات الصدى في واد سحيق عن مصدر صوت واحد هو مقولات المستشرقين. وإن المتأمل في الرؤيتين الاستشراقية والعلمانية يجد أنهما انعكاس للفلسفة المادية الوضعية التي كرّسها فلاسفة النهضة الأوربيين منذ ديكارت وسبينوزا إلى فيورباخ وماركس، ثم فلسفة الحداثة المعاصرة. لقد قال سبينوزا : يختلف الوحي عند الأنبياء تبعاً لمزاجهم وبيئاتهم وأحوالهم، فالنبي الفرح توحي إليه الحوادثُ السلامَ،

1) آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.تيزيني ص 253-257.

والانتصارت، والنبي الحزين توحي إليه الشرورَ، والهزائم، والأحزان [1]. فكان الصدى من د.حسن حنفي : الوحي عبارة عن مواقف إنسانية زاخرة بالأمل والمعاناة والجهد والفرح والألم وتجارب النفاق، والخداع، إنه قلقٌ وضيقٌ، وأملٌ وألمٌ وتوجعٌ يحس به الفرد [2]. وكان الصدى من أركون (الأنبياء كالشعراء والكبار)، و(كالفنانين الكبار) [3]. وكان الصدى من نصرحامد أبو زيد (فإن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية المخيلة في اليقظة والنوم على سواء، وليس معنى ذلك، التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة المخيلة وفاعليتها، فالنبي يأتي من دون شك في قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب)[4].

وإذا يمكننا الآن أن نقول: إن الرؤى العلمانية والاستشراقية التي عرضناها حول الوحي لم تأت بجديد حول مفهوم الوحي أو الاعتراض عليه، وإنما هو تكرار لمواقف المشركين المُحتارة والمضطربة في معارضة النبي r ، وإن كان ثمة جديد فهو الصياغات التي تُعرَض بها التفسيرات الحديثة.

عدا كل ما تضمنه الكلام السابق من نقد لأنسنة الوحي فالمدقق يجد في نصوص كلام الله تعالى آيات إلهية بمعانيها التي تصف حال جماعة العلمانيين في مواقفهم هذه قبل أن تقع، وتجيب عن دعاويهم من وراء الزمان، مع أنها بالألفاظ نفسها عينها تصف موقف المشركين من النبي r والوحي إذ يقول تعالى: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)[يونس:2] (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ)[الأنبياء:5] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)[المؤمنون:25] (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)[الصافات:36] (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)[سورة ص:4] (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)[الطور:29] (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)[الحاقة:43] (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)[الزخرف:30] (وَقَالُوا يَاأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)[الزخرف:49] (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)[الذاريات:52].

---

1) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة: سبينوزا ص 150، 151.

2) انظر: في فكرنا المعاصر: حسن حنفي ص 180.

3) انظر: تاريخية الفكر: أركون ص 38؛ نافذة على الإسلام: أركون ص 134.

4) انظر: مفهوم النص: نصر حامد أبو زيد ص 56.

وقد قال المستشرق أرنست رينان: ''من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعاني أن نطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية (لفظ عربية)...، فكل ما في الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية''. وأنا وإن كنت أستصوب رأيه بدرجة لا تبلغ المئة في المئة. لكني أود أن أسأل : فماذا يقال إذا في حق الفلسفة العربية العلمانية المعاصرة؟!. بل أضيف أن الفلسفة العربية المعاصرة - على الأقل حتى الآن- هي الأخرى كذلك أو أضعف. وإن كنت لا أوافق أبداً تتمة كلامه العنصري الذي يقول فيه: ''وأعدني أول من يعترف بأنه لا يوجد ما نتعلمه أو نتعلمه تقريباً، من ابن رشد أو من العرب.... وليس العرق السامي هو ما ينبغي لنا أن نطالبه بدروس في الفلسفة''[1]. ولكن المؤلم أكثر من ذلك موقف من يدعي الدفاع عن العروبة، إذ أحال محمد عابد الجابري غياب الفلسفة من التاريخ العربي إلى اللغة العربية، التي تقوم على حد قوله على خاصتين اثنتين هما: لا تاريخيتها، وطبيعتها الحسية. مما يحول دون توفرها على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير، ومن ثم فهي ليست لغة ثقافة وفكر[2].

غير أني – ناصحاً لمساعدة أصحاب هذه المواقف على الخروج من أزمتهم - أرى أن مشكلة الفلسفة العربية تعود في الأساس إلى الصيغة التي صاغت بها علاقتها بالوحي. فإنها دأبت في أن تعامل مشكلاتها إما بالبدء من الصفر في كل مرة، أو من رقم وصل إليه اليونان أو الرومان أو فلسفة عربية سابقة انطلقت من مثل هذا المبدأ. وهذا السبب الذي كان ومازال وسيبقى وراء فشلها إلى أن تعيد النظر - بعيداً عن المراوغة والتقية- في الانطلاق: إما من صفر حقيقي يتوجه أولاً إلى البحث عن إجابة قطعية مثبتة وإلا فلا، حول حقيقة الوحي ورسالته في حياة الأمة التي ينتمي إليها المتفلسفون العرب خاصة والأمم البشرية عامة، فإذا وجدت أنها إجابة قطعية مثبتة تبنت الرقم الذي يقدمه لها الوحي الإلهي، وسارت ونظرها إلى الأمام تبحث عن حل المشكلات التالية دون أي مخاوف أو تشويشات تربك مسيرتها، ولا خوف عليها بعدها من اكتشاف الأخطاء في مسيرتها الإنسية، فإنها ستجد دوماً كلما عجزت رقماً عظيماً في رصيدها يمكنها أن تبدأ منه مرة أخرى تلو مرة أخرى من غير فاقة. وأما إن كانت الأخرى هي الإجابة، فما على هذه الفلسفة لكي لا تعيد انطلاقاتها الصفرية إلا أن تبدأ من صفر غير مراوغ يعلن أنه لا يعترف بقطعية ثبوت حقيقة هذا الوحي ولا يحتاج إلى رسالته.

---

1) آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.تيزيني ص 258-259؛ ابن رشد والرشدية: أرنست رينان ص13.

2) آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.تيزيني ص 259؛ تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري ص80-86.

أو أن تنطلق بدل ذلك من رقم يقدمه لها الوحي الإلهي فتتبناه جاهزاً بأسلوب إيديولوجي بحكم انتماء دعاة هذه الفلسفة إلى هذه الأمة وراثة. فتصدق مع انتمائها صدقاً إيديولوجياً، يمكنها بعده أن تتابع مسيرتها ونظرها إلى الأمام أيضاً على النحو السابق. وقد حسمت جوابها عن سؤال الوحي حسماً لا تقبل معه المراجعة. فتتفرغ لبحث المشكلات الأخرى على أساس هذا الحسم. ولكن هذا الأسلوب الأخير – وإن كان مقبولاً شرعاً وانتماءً - فهو طبعاً لن يكون مقبولاً فلسفياً بحيث يرتضيه العقلانيون صادقو العقلانية!!.

ذلك هو السبيل في رأيي لبناء فلسفة عربية تكون إسلامية حقيقية. أو فلسفة عربية حقيقية ولكنها غير إسلامية. فإنه كما قال الله تعالى: (إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً)[يونس:36] فكيف إذا كان ظناً مطلقاً، ونسبية مطلقة في جدلية ناكسة للعلاقة بين المطلق والنسبي؟!. وإنه ما من شك في أن المراوغة لا يمكن أن تكون منهجاً أو سلوكاً لفلسفة فكرية حقيقية، وإن أمكن أن تكون فكرة لسلوكٍ سياسي ميكيافيليٍّ.

إن على القراءاتيين أن يعوا وعياً تاماً أن الله سبحانه ليس عربياً، ولم يعش في الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي قبل أكثر من أربعة عشر قرناً. وأن لا يخلطوا بين محمد e وظروف حياته وبين الله تعالى، وإن كان هذا الذي يصيبهم طائف من الاستشراق فليتنبهوا إلى أن تاريخ الفكر الإسلامي ليس فيه قول باختلاط بين اللاهوت والناسوت في شخص محمد e ولا اختلاف في ذلك. وأن هذا قضية ترجع إلى تاريخ اللاهوت المسيحي، لا إلى تاريخ الكلام الإسلامي. وقد يكون لها انعكاساتها على مفهوم الوحي في المسيحية، ولكن لعدمها أصلاً لا يمكن صوغ انعكاسات لها على مفهوم الوحي في الإسلام.

إن مما يرد مقولاتهم بجلاء قوله تعالى: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[الملك:14]. هذا إن أرادوا أن يسمعوا إلى هذا البيان من غير أن يؤنسنوه أو يترخنوه أو يهرمنطقوه أو يفككوه. فإن قولهم بأن النص إلهي ولكن معناه على غير مراد الله، يسبق في العنت قول العيسوية وهي فرقة من اليهود ظهرت في زمن أبي جعفر المنصور كان تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلى العرب خاصة. فصدقت رسالة محمد r فيما عدا قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ)[سبأ:28]. وقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[الأنبياء:107] كما يسبق تعنت القاديانية الذين يشهدون لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لكن بعده نبي هو ميرزا غلام أحمد، فصدقوه في غير قوله تعالى: (وخاتم النبيين).

وعلى هؤلاء المؤنسنين أن يتجنبوا التأثر بالفكر اليهودي في الظن بأن النسخ تبديل لآرائه تعالى.

وأنه لم تكن أسباب النزول دافعة له إلى شيء من البداء في علومه أو التحديث لوجهات نظره، فهذا أيضا تأثر يهودي، والحق أن علمه سبحانه علم أزلي محيط بكل شيء، فهو يعلم ما كان وما يكـــون وما سيكون وما لم يكن أنه لو كان كيف يكون.

وهو متصف بكمال الإرادة والقدرة، ليس عاجزاً عن البيان، حتى كلما تكلّم تفلتت المعاني التي يريدها من ألفاظه، أو تفلتت ألفاظه منه بما لا يطابق المعاني التي يريـــدها. وهـــذا تـــأثر كتـــابي يهـــودي ونصراني، بعد تحريف رسالة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عبر تدوينهما من قبل من يعتقد أن الوحي يؤيده في أثناء تدوينه وإن كان ما يكتبه باطلاً.

وهو سبحانه أنزل الوحي ليحكم بين الناس، ويضبط لهم ما يجتهدون فيه وما يستسلمون فيه. وليس ليستسلم لهم يحكمون فيه ما يشاؤون. فهو فهم تنزعه نزعة باطنية، كما أنه تـــأثر بعقائـــد وثنيـــة متسللة في رفقة الفلسفة اليونانية والرومانية.

وهو سبحانه لم يكن ساهياً ولا مؤرخنا في قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ)[سبأ:28]. و: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[الأنبياء:107]. حتى يأتي من ينبهه على أن كلامه على معناه الذي أنزله عليه لا يصلح إن صلح لأكثر من مدة وجيزة وأحوال خاصة ومكان معين حصراً. فهي نزعة يهودية عيسوية وقاديانية أيضاً كما أشرت سابقاً.

إن الوحي وهبي لا كسبي، إلهي لا بشري (وإن شاؤوا فليقولوا: ثيولوجي لا أنتربولوجي). يكون فهم نصوصه الموحى بها بناء على نسبته إلى المرسِل هداية للمتلقي في كل زمان ومكان وكل حال.

ويلاحظ أن مقولة التاريخية ومقولة الهرمينوطيقا (القراءة المعاصرة) في التعامل مع الوحي [فـــصلا ووصلا] عن مصدره ومتلقيه، مقولة متناقضة داخلياً. إذ تجعل الوحي يقول كل شيء وفـــي الوقـــت نفسه لا يقول شيئا. وهذا ما يؤدي في حقيقة الأمر من حيث المآل إلى أن يكون النص تابعاً لمـــزاج القارئ بدلاً من أن يعبر عن مقصود قائله. وبذلك ينقلب مفهوم الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يكـــون هواه تبعا لما جئت به)[1] حتى يعود ما جاء به النبي e تبعاً لما يهواه القارئ. ولا حول ولا قـــوة إلا بالله.

---

1) كنز العمال 217/1[1084] والإبانة لابن بطة 387/1 ورجاله ثقات، قال الحافظ في فتح الباري 289/13: صححه النـــووي في الأربعين.

ومن الألاعيب المفضوحة التي يجب أن يُستحيي منها، ما يقوم على تغيير المعنى الـذي وضـع لـه مصطلح الاجتهاد المطلق. من خلال الخلط بين الاجتهاد المطلق بمعنى الذي يقوم على تمكـن كامـل لصاحبه من أدوات الاجتهاد، وبين الاجتهاد المطلق بمعنى المتفلت نهائياً من مراعاة النص[1].

إن لكل من إثبات النسخ والتدرج في نزول الأحكام؛ وخصائص المكي والمدني؛ وأسباب النزول؛ وما نزل على ألسنة الناس حكماً جليلة يعلمها علماء الشرع، وليس منها شيء مما يحاولون تقويل هـذه المبادئ له.

وعلى هذا النحو قاعدة تبدل الأحكام الشرعية بتبدل الأحوال؛ وتعليل الأحكـام؛ والمجمـل والمفـسر ومخالفة بعض مذاهب الصحابة كاجتهادات عمر t لظواهر النصوص، ورعاية المصالح المرسلة.

وكذلك المقاصد هي مقاصد الشريعة، لا مقاصد النسبيين القراءاتيين المتسفسطين اللا أدريين.

وإن الهدف الذي يرمون إليه من وراء دعاوى الاجتهاد الأنسني في فهم الـنص الـسماوي معلـوم مفضوح، ولا يخفى على أدنى نظر مآل دعوة الأنسنة والنتيجة اللازمة لها ألا وهي مقولة مـا بعـد الحداثة!!!. أليس منطقياً أن تكون دعوات الحداثة طريقاً لما بعد الحداثة، لا طريقاً إلى فهـم الـنص السماوي الذي قبل الحداثة. ولكن عيب العوار في دعوات الحداثة يتضح جلياً بمقولة ما بعد الحداثة، التي هي ارتكاس إلى ماض أغرق ما يكون في القدم والسخف، إنه النكوص إلى مقـولات العنديـة، واقتداء بإمام السفسطة بروتاغوراس الذي وقف مِن وراء الحداثيين القراءاتيين ومَن بعدَ الحـداثيين ليناديهم سائقاً لهم من قَبل ما يزيد على ألفين وخمس مئة سنة صائحاً بهم: (إن الإنسان مقياس كـل شيء). !!!!.

الخاتمة:

النتائج:

عالج البحث مسألة هي أساس مهم للحوار المعاصر حول الدين والواقع. فحدد كيفية التعامـل مـع النصوص الشرعية بهدف النهوض بالواقع العربي والإسلامي نحو التقدم والتطور، خدمة للمـصالح الفردية والجماعية للأمة.

1) انظر: الاجتهاد، النص الواقع المصلحة: محمد جمال باروت ص 136.

أهم النتائج التي توصل إليها هي:

1. **أوضح البحث عدم مناسبة الاتجاه الهرمينوطيقي والتفكيكي للتطبيق على النص القرآني. ومن ثمَّ عدم إمكانية تطبيق مقولة الأنسنة على الوحي في الإسلام. وتم شرح أسباب ذلك بأسلوب الدراسة النقدية لدعوة الأنسنة.**
2. **الكشف عن فساد المنهج العلمي الذي ترتكز عليه دعوة أنسنة الوحي إذ تنتهي إلى التنكر لقيمة العلم في ذاته، وتمتد بجذورها إلى الفلسفة السوفسطائية العندية.**
3. **تحديد أقدم استخدام معروف لمفهوم الأنسنة. وهو ما جاء على لسان برتاغوراس أشهر العنديين، في قوله: (إن الإنسان مقياس كل شيء).**
4. **اكتشاف أن المصدر الذي اقتبس منه الشيخ محمد عبده قوله في النبوة، هو كلام ابن السيد البطليوسي الأندلسي في هذا الموضوع.**
5. **دفع البحث العديد من الشبهات عن النص القرآني ومنها المقولة التي يتبناها المستشرق الإنكليزي المعاصر الدكتور ج. ر. هاوتنغ.**
6. **وكذلك أشار إلى مواضع الخلل الرئيسة في الركائز المدعاة من أجل شرعنة تطبيق منهج الأنسنة على نصوص الوحي الإسلامي.**
7. **وقد كان لاعتماد البحث على المنهج التحليلي والتاريخي النقدي أثر كبير في الكشف عن فوارق المواقف من الوحي لدى الأديان والفلسفات الأساسية في تاريخ الإسلام والغرب.**
8. **فضلاً عن غير ذلك من النتائج الجزئية.**

التوصيات:

1. **الدعوة إلى اهتمام المختصين بإزالة الأغلفة الاصطلاحية الموهمة التي يستخدمها دعاة الحداثة وما بعدها.**
2. **تركيز الاهتمام العام على نشر الدعوة إلى الفكر والسلوك الديني الملتزم بين مختلف الطبقات الثقافية، في المجتمع العربي خاصة، والإسلامي عامة. لدعم مشروع الصحوة، استباقاً لخطر انزلاق الأمة في أحضان الدعوات الهدامة المتسترة بالحداثة.**

3. **إن الحديث عن نصية التاريخ في القرآن والواقع هو الطرح الصحيح في مقابلة تاريخية النص القرآني. [ويجدر التأليف فيه].**

وهنا أختم بأنه قد بات من الواجب أن تنتهي المعادلة إلى العودة إلى الثوابت الدينية، أو إلى نفي كل الثوابت. وذلك هو معنى ما بعد الحداثة فلسفيا: فبعد فشل أصحاب التنوير، وخاصة بعد نجاح حركات التحرير التي يعلم جميعهم دورها في الأنثروبولوجيا ما بعد الحداثية، بات من الضروري أن تسقط مطلقات الإنسوية الغربية[1]. ولا يمتنع عود ما انهدم مادام الله تعالى هو القائل: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[الزمر:53].

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

1) النظر والعمل: د.المرزوقي ص235-236.

فهرس المصادر والمراجع

- الكتب المعتمدة في تخريج الأحاديث هي النسخة الإلكترونية من المكتبة الشاملة الإصدار 2.11
- ابن رشد والرشدية: أرنست رينان، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1957م.
- الاجتهاد، النص الواقع المصلحة: د.أحمد الريسوني، محمد جمال باروت، دار الفكر، دمشق، سلسلة حوارات لقرن جديد ط/1، 2000م.
- الاستبداد والمرجعية في الخطاب الإسلامي: خالد مدحت أبو الفضل. ترجمة: محمد سفر عيد، تقديم أنور إيمان، الأوائل، دمشق: ط/ 1، 2004.
- أسس الفلسفة: توفيق الطويل، ط/7، دار النهضة العربية، القاهرة.
- الأسطورة والتراث: سيد محمود القمني، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ط/3، 1999م.
- الإسلام في مواجهة الإيديولجيات المعاصرة للدكتور عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة، مطبعة دار السعادة، القاهرة، ط/1، 1987.
- الإسلام والغرب: روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط/1، 1962.
- الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر: مونتجمري وات، ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، مكتبة الأسرة 2001 م.
- الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، تحقيق: د.عبدالصبور شاهين، دار البحوث العلمية، بيروت، ط2/، 1973م.
- إظهار الحق: رحمة الله الهندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1993م.
- آفاق فلسفة عربية معاصرة: د.أبو يعرب المرزوقي، د.طيب تيزيني، سلسلة حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق، ط/1، 2001م.
- أفلاطون: أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف – القاهرة، 1965م.

- الإمـــام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية: نصر حـــامد أبو زيد، دار سينا، القاهرة، ط/3، 1992م.
- إيمانويل كانت: عبدالرحمن بدوي، ط/1، وكالة المطبوعات، الكويت.
- تاريخ الأديان للدكتور محمد الزحيلي والدكتور يوسف العش، المطبعة التعاونية بدمشق، 1982م.
- تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط: يوسف كرم، دار القلم، بيروت.
- تاريخ الفلسفة الحديثة: وليم كلي رايت، ترجمة: محمد سيد أحمد، مراجعة إمام عبدالفتاح إمـــام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2001م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية: د.يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط/2، 1946م.
- تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون.
- التفسير الماركسي للإسلام: د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط/2، 2002م.
- تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري، دار الطليعة، بيروت، ط/2، 1985م.
- التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها The Bible Unearthed: أ. د إسرائيل فنكلشتاين، نيل أشر سيلبرمان
- التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: د.محمد رضوان الدايـــة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر - دمشق، ط/1، 1410هـ.
- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبـــي، تحقيـــق عبـــدالله بـــن عبدالمحسن التركي وغيره، مؤسسة الرسالة، ط/1، 2006م.
- جدل التنزيل مع كتاب خلق القرآن للجاحظ: رشيد الخيون، منشورات الجمـــل، كولونيـــا ألمانيـــا، ط/1، 2000م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، تحقيق السيد صبحي المدني، مكتبـــة المـــدني، جدة.
- الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة: أبو محمد عبدالله بن محمـــد الـــسيد البطليوســـي الأندلسي دار الفكر، دمشق؛ الطبعة الأولى، 1988.

- الخطاب والتأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيـروت، الـدار البيـضاء، ط/4، 1996م.
- دفاع عن محمد r: د.عبدالرحمن بدوي، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتـاب والنـشر، القاهرة 1999م.
- الديانات والعقائد في مختلف العصور: أحمد عبدالغفور عطار، مكة، ط 1401هـ.
- رسالة التوحيد: الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1986م.
- رسالة في اللاهوت والسياسة: باروخ سبينوزا، ترجمة وتقديم د.حسن حنفـي، مراجعـة فـؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- سفر التاريخ اليهودي (اليهود – تاريخهم – عقائدهم – فرقهم - نشاطاتهم – سلوكياتهم – الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية): رجا عبدالحميد عرابي، ط/2، 2006، الأوائل، دمشق.
- عصر الإلحاد: محمد تقي الأميني الندوي، ترجمة: مقتدي حسن ياسين، دار غريب، القاهرة.
- عقيدة النصارى بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: محمد طارق الشافعي،
- العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: أميل باترو، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، الهيئـة المـصرية، 1973م.
- العلمانية تحت المجهر: د.عبدالوهاب المسيري – د.عزيز العظمة، سلسلة حوارات لقرن جديـد، دار الفكر، دمشق، ط/1، 2000م.
- العلمانية والممانعة الإسلامية: علي العميم، دار الساقي، بيروت، ط/1، 2000م.
- الغزالي بين الفلسفة والدين لعارف تامر. نشر رياض السيد، لندن. ط/1، 1987م.
- فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط: أحمد فؤاد الأهواني، ط/1، 1974م، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: علي بن أحمد بن حزم، تحقيـق د.محمـد إبـراهيم نـصر – عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، ط/6، دار الفكر، بيروت.

- فلسفة الدين والتربية عند كانت: عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات، بيـــروت، ط/1، 1980م.
- فلسفة العصور الوسطى: عبدالرحمن بدوي، القاهرة، 1969م.
- الفلسفة اليونانية: كريم متى، مطبعة الإرشاد، بغداد 1391م.
- في الشعر الجاهلي: طه حسين، دار المعارف، سوسة، تونس، ط/3، 2000م
- في فكرنا المعاصر: حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، ط 2 / 1983.
- القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، ط/2، المطبعة الحسينية بمصر.
- قصة الإيمان: الشيخ نديم الجسر، دار المثقف المسلم، قم، 1362هـ.
- قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل، ط/2، دار مصر.
- الكتاب المقدس – أي كتب العهد القديم والعهد الجديد -: دار الكتاب المقدس، في الشرق الأوسط.
- كتاب المواقف لعضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الإيجي الإيجـــي بـــشرح الجرجـــاني، تحقيـــق: د.عبدالرحمن عميرة، دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى، 1997
- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة: محمد شحرور، دار الأهالي، دمشق، دار ســـينا، القـــاهرة، ط/1، 1992م.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، ط/1.
- محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي.
- محمد الرسالة والرسول: نظمي لوقا، طبعة وزارة التربية والتعليم بمصر، ط/2، 1959م.
- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خـــاطر، مكتبـــة لبنـــان ناشرون – بيروت 1415 – 1995.
- المدخل إلى الفلسفة: أزفولد كولبة، ترجمة: أبو العلاء عفيفي، القاهرة، ط/2، 1363هـ.
- المسيحية: من مجموعة مقارنة الأديان: أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية – القـــاهرة، ط/6، 1978م.

- مشكلة الفلسفة: زكريا إبراهيم، طبع مكتبة مصر، بمصر.
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي: د.عبدالرحمن بن زيد الزنيدي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام ط/1، 1412هـ= 1992م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي هيرندن، فيرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية. مكتبة المؤيد، الرياض، والطائف.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: حافظ بن أحمد حكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم – الدمام، ط/1، 1410هـ – 1990م.
- المغرب في ترتيب المعرب: أبو الفتح ناصر الدين بن عبدالسيد بن علي بن المطرز، تحقيق: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد – حلب، ط/1 1979م.
- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، طبع دار المعرفة – بيروت.
- مفهوم النص: نصر حامد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.
- الملل والنحل: محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار صعب، بيروت، 1986م.
- منهاج السنة النبوية: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط/1.
- مواقف من تاريخ الكنيسة: رولاند بينتون، ترجمة: القس عبدالنور ميخائيل، دار الثقافة، القاهرة، ط/2.
- الموسوعة العربية الميسرة: محمد شفيق غربال، ط/2، 1399هـ.
- موسوعة المستشرقين لعبدالرحمن بدوي ص 409. دار العلم للملايين، بيروت. ط/3، 1993.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ص1170-1171
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د.عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط/1، 1999م.
- موقف الفكر العلماني العربي من النص القرآني – دعوى تاريخية النص نموذجا للدكتور أحمد

إدريس الطعان الحاج ص 491. رسالته لنيل درجة الدكتوراه. نسخة غير منشورة.

- **نافذة على الإسلام: محمد أركون، ترجمة: صياح الجحيم، دار عطية للنشر، بيروت ط/1، 1996م.**
- **النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة: طيب تيزيني، دار الينابيع – دمشق، ط/2.**
- **النظر والعمل والمأزق الحضاري العربي والإسلامي الراهن: د.أبو يعرب المرزوقـي – د.حسن حنفي، سلسلة حوارات لقرن جديد، دار الفكر، ط/1، 2003م.**
- **النظرية المادية في المعرفة: روجيه جارودي، ترجمة: إبراهيم قريط، دار دمشق للطباعة، دمشق.**
- **نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة: د.راجح عبدالحميد الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط/1، 1992م.**
- **الوحي والقرآن والنبوة: هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط/1، 1999م.**
- The Idea of Idolatry and the Rise Emergence of Islam: [From Polemic to History]: GR Hawting, 1999 Cambridge University Press
- http://en.wikipedia.org/wiki/G.R._Hawting.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/3/26.